320

HARLEQUIN

روايات أحلام

الإنتظار المر

شارون كيندريك

www.elromancia.com
مرمورية

الإنتظار المر

ـ هل تأتين يا صوفي وتعيشين معي في إسبانيا؟
خفق قلبها: "سآتي".
قالت هذا بصوت منخفض. مفكرةً بشوق وألم أن هذا يشبه تعهدات الزواج. لكنه لم يكن يعرض عليها الزواج.
نعم. إنه يريدها... ولكنْ لا حب هناك ولا زواج... يريدها فقط مربية لابنه
سألها: "هل ستتخلين عن وطنك وعملك وحياتك؟"
ـ نعم
ـ لماذا؟
كيف ستجيبه؟ هل تقول له إنها تقوم بذلك لأجله... لأنها تحبه؟ إذا فعلت ذلك. قد تخسره... إلى الأبد؟

2500ل.ل	1دينار
75ل.س	10ريال
1.5دينار	8جنيه
750فلس	15درهم
10دراهم	2دينار
10ريال	1ريال

ISBN 9953-15-196-2

روايات أحلام

تصدر عن شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش م م
المدير المسؤول آمال سابا الهاشم

حقوق النشر والطباعة والتوزيع باللغة العربية
محفوظة لشركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش م م
بترخيص خطي من Harlequin Enterprises II B.V

كل الحقوق محفوظة، بما فيها نسخ الكتاب بكامله أو جزء منه بأي شكل من الأشكال
تم نشر هذه الطبعة بالاتفاق مع شركة Harlequin Enterprises II B.V.

كل العلامات التجارية استعملت
بترخيص من شركة Harlequin Enterprises II B.V.

كل شخصيات هذه الرواية وهمية. أي شبه بين هذه الشخصيات وأشخاص حقيقيين أحياء كانوا أم أمواتاً هو محض صدفة

العنوان الأصلي لهذه الرواية باللغة الإنكليزية:
Mistress of La rioja
First published in Great Britain 2002
Harlequin Mills & Boon Limited
© *Sharon Kendrick 2002*
Translation © Dar El-Farasha - 2004
ISBN 9953 - 15 - 196 - 2

شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م. طريق المطار - سنتر زعرور -
ص.ب: 8254/ 11 هاتف/ فاكس: 450950-1-961- بيروت - لبنان
Email: info@darelfarasha.com - http:www.darelfarasha.com

شارون كندريك

بدأت بكتابة القصص في سن الحادية عشرة ولم تتوقف أبداً. تفضل كتابة الروايات ذات الأحداث السريعة والممتعة حيث يتمتع الأبطال بجاذبية تخطف الأنفاس.

ولدت شارون في لندن وتعيش اليوم في مدينة وينشستر الجميلة، حيث يمكنها مشاهدة الكاتدرائية فقط إذا ما وقفت على رؤوس أصابعها. متزوجة من بروفسور في الطب، وربما لهذا السبب تصاب هي وأفراد أسرتها بالرشح أكثر من أي شخص آخر في الحي. لديها ولدان: سيليا وباتريك.

تحب شارون الموسيقى، الكتب، الطبخ وتناول الطعام... وتحب أيضاً الانسياق وراء أفكارها الحالمة للبحث عن حبكات جيدة لرواياتها الجديدة!

١ ـ نظرات قاتلة

رن جرس الهاتف في اللحظة غير المناسبة على الإطلاق. صدرت عن صوفي آهة ضيق، فقد كانت مستغرقة تماماً في العمل. مازال عليها ان تنجز الكثير، مع أنها جاءت إلى المكتب منذ بزوغ الفجر.

في العادة، تبدأ عملها حوالى الثامنة وتبقى في المكتب إلى أن تنهي عملها مهما تأخر بها الوقت. لا أحد يمكن أن يتهم صوفي بعدم تكريس نفسها للعمل. لكنها المرة الأولى التي ترغب فيها في الخروج مبكرة، إذ عليها الاستعداد للخروج في موعد، وهو موعد غير عادي مع أوليفر دنكان صاحب وكالة إعلانات «دنكانز» المنافسة.

خفق قلبها توتراً لأنها على وشك أن تمضي السهرة مع أكثر الرجال جدارة في لندن، ما جعلها مثار حسد صديقاتها. ضغطت على زر الهاتف الداخلي: «والآن، قلت لك لا أريد أن يزعجني أحد ناريل».

قالت هذا مازحة لأنها تعلم جيداً أن ناريل هي أفضل مساعدة في العالم. ولهذا ربما كان الأمر هاماً، بل لا بد أن يكون كذلك!

لكن صوت ناريل كان منهكاً: «مع الأسف، هذا الرجل لا يقبل كلمة (لا) جواباً. لقد أصرّ على التحدث معك».

فعبست صوفي: «هل أصرّ على ذلك؟ لا أظنني أحب الإصرار من الرجال. من هو؟».

ـ إنه... إنه..

وتنحنحت ناريل وكأنها لا تستطيع أن تصدق الاسم الذي ستتلفظ به «إنه دون لويس دي لاكامارا»

لويس!!

تشبثت صوفي بمكتبها وكأنها تريد أن تنقذ حياتها العالية يا للجنون يا للحماقة!

مجرد ذكر اسمه جعل العرق البارد ينضح منها شعرت بالإثارة. لكن سرعان ما تلا ذلك شعور بالذنب.

ولكن، ماذا بشأن لويس دي لاكامارا؟ إنها تعرف أي نوع من الرجال هو إنه سطحي، مثير وغير ملتزم على الإطلاق. ومع ذلك، ها هي ذي الآن! صوفي الهادئة العقلانية، التي يجدر بها أن تفكر فقط في أوليفر وموعدها معه.

راح قلبها يخفق وكأنه قطار سريع وهي تحدّق بالهاتف الداخلي. أصبح أوليفر منسياً، وحلّ مكانه رجل أسمر هو أكثر الرجال الذين عرفتهم تأثيراً.

تمالكت نفسها، وراحت تتساءل لماذا يتصل ذلك الإسباني المتغطرس بمكتبها، ويصرّ على التحدث إليها؟ أومأت كارهة: «لا بأس ناريل. صليه بي».

ـ حسناً.

بعد لحظة سمعت صوفي ذلك الصوت الرجولي العميق، الذي لا يمكن أن تخطئه، يتدفق عبر الهاتف. شعرت بالدم يتصاعد إلى وجنتيها الشاحبتين وذكّرت نفسها بأنه متزوج من ابنة خالتها... وأنه الرجل الذي تحتقره. هل نسيت؟

كان عليها أن تعلّم نفسها كيف تكرهه. فمن الأفضل أن تكره هذا الرجل، من أن تعترف بأنه يثير أحاسيسها بطريقة تبدو لها مخيفة بقدر ما

هي غير مناسبة. وكيف يمكنها ألا تشعر بالكراهية نحو رجل راح ينظر إليها والرغبة واضحة في عينيه، وذلك قبل زواجه من ابنة خالتها بأيام؟

ـ صو... في؟

إنه يلفظ اسمها كما لا يلفظه أحد آخر. بذلك الأسلوب واللكنة الخفيفة في الصوت، اللكنة الإسبانية التي ترسل رعشة خفيفة في الجسم.

قطعت صوفي الاتصال بينها وبين مكتب السكرتيرة، ثم رفعت سماعة الهاتف. آخر ما كانت تريده هو أن يملأ أرجاء مكتبها بنبرات صوته المميزة هذه.

وأجابت باختصار وهي تضع قلمها: «إنها هي. حسناً، إنها مفاجأة تامة لويس».

وكان في قولها هذا تبخيس للواقع.

ـ نعم.

بدا صوته غير مألوف. كان ثقيلاً، صلباً، ومرهقاً. وشعرت صوفي فجأة برجفة غامضة مهدّدة، عندما حلّ المنطق مكان ردّة فعلها الغريزية الأولى. وارتفع صوتها بفزع: «ماذا حدث؟ لماذا تتصل بي إلى العمل؟».

مرّت لحظة صمت زادت من مخاوفها، لأن صوفي لم تسمع لويس يتردد قط من قبل. فالتردد ليس وارداً في قاموسه. بعض الرجال لا تعوزهم الكلمات، و دي لاكامارا هو مثال نموذجي لهؤلاء. وهمست: «ماذا حدث؟ ما الأمر؟».

ـ هل أنت جالسة؟

ـ نعم! لويس، أخبرني بحق الله!

هناك في بلاد أخرى بعيدة، تراجع لويس. لم تكن ثمة طريقة سهلة ليخبرها بالأمر. لا يمكنه أن يفعل شيئاً يخفف من ألم الكلمات. راح يقول ببطء: «إنها ميراندا. عليّ مع الأسف أن أخبرك صوفي.. لقد حدث

تصادم فظيع. ابنة خالتك... قُتلت!!».

كرر كلامه بلغته، وكأن ذلك يساعده على الاقتناع وتصديق حقيقة ما حدث هو نفسه.

صدرت عن صوفي صرخة ممزقة جعلتها أشبه بحيوان جريح: «لا!»

ـ بل هو صحيح.

ـ هل ماتت؟ ميراندا ماتت؟

سألته وكأنها ما زالت ترجو أن ينكر ذلك... أن ينفيه.

ـ نعم، وأنا آسف صوفي. آسف جداً.

أصابتها هذه الكلمات في الصميم، فترنحت لهول الصدمة.

ميتة! ميراندا ميتة؟ ولكن هذا غير ممكن! وأخذت تنشج باكية. كيف لامرأة في الخامسة والعشرين ورائعة الجمال أن تختفي من الوجود؟

ـ قل إن هذا غير صحيح لويس.

ـ ألا تظنين أنني كنت لأقوله لو استطعت؟ لقد ماتت اليوم في حادث اصطدام سيارة.

قال هذا متابعاً سرد قصتها التعيسة بصوت يكاد يكون رقيقاً.

ـ لا!

ارتجفت صوفي وأغمضت عينيها. وما لبث أن ارتسم أمامها مشهد مفزع آخر، ففتحتهما مرة أخرى بفزع: «وماذا بشأن تيودور؟ إنه لم يكن معها، أليس كذلك؟».

صرخت بذلك وقد انقبض قلبها ذعراً وهي تفكر في الطفل الغالي.

فقال لويس بصوت مثقل: «في ساعة مبكرة من الصباح؟ كلا صوفي، لم يكن معها. كان ابني في فراشه آمناً تماماً».

ـ آه، الحمد لله.

قالت هذا بصوت خافت. اخترقتها موجة كبيرة من الحزن كالخنجر، وقد انطبعت كلماته في عقلها الواعي.

إذاً، كان تيودور نائماً في فراشه بأمان. فماذا كانت تفعل ميراندا في الخارج في ساعات الصباح الباكرة؟ ولماذا لم يُصب لويس معها في الحادث؟ وسألته بعدم ثبات: «هل أصبت أنت أيضاً، لويس؟».

في جوّ المنزل الريفي الكبير المبرّد بالمراوح ارتسمت علامات الكآبة والحقد على ملامح لويس الصلبة الداكنة، وهو يقول بخشونة: «أنا لم أكن معها في السيارة».

رغم أن أفكارها كانت ممزقة لضخامة ما أخبرها به، قطبت جبينها باضطراب. لمَ لا؟ وماذا كانت ميراندا تفعل في الشوارع في ساعات الصباح الأولى من دون أسرتها؟

انقبضت يداها، لا وقت الآن لكلمات مثل لماذا، وأين، وكيف... ليس الآن. بل المطلوب هو مواجهة هذا الموقف بأكثر ما يمكن من التعاطف..

لا بد أن لويس حزين... لا بد أن يكون كذلك بالرغم مما قد يكون مر في حياته الزوجية مع ميراندا من أيام سيئة. ذلك أن الحياة الزوجية، كما تدرك صوفي، لا تخلو من بعض المتاعب. أما الآن، فحياة زوجته وأم ابنه قد انتهت بشكل مأساوي. ومن دون اعتبار لما حدث من قبل، لقد تفجر عالم لويس.

لم يكن لشعورها الخاص نحوه أي حساب... ليس في وقت كهذا. إنه الآن بحاجة إلى تعزيتها وليس إلى عدائها.

وقالت بجفاء: «أنا... أنا آسفة للغاية».

فقال بفتور: «شكراً. اتصلت بك لأبلغك الخبر بنفسي قبل أن تتصل بك الشرطة. ولأسألك إن كنت تريدينني أن أتصل بجدتك...».

ذكّرتها كلماته بالمهمة الفظيعة التي تنتظرها، وهي إخبار جدتها

المسنة الواهنة الصحة بما حدث. وتنفست صوفي بألم. فكرت أن والدي ابنة خالتها لن يعانيا محنة موت ابنتهما الرائعة الجمال، ذلك أن موت الابنة قبل الأوان لم يكن هو الفجيعة الوحيدة على الإطلاق.

كان والدا ميراندا يعشقان التجوال في العالم. وقد جالا في أنحاء الدنيا الأربع، يبحثان بنهم عن تجارب جديدة، من دون أن يتعبا من المغامرات والاكتشافات. إلى أن سقطت طائرتهما الخفيفة في أحد الأيام فوق الجبال. كانت ميراندا حينذاك في السابعة عشرة من العمر فقط، وسرعان ما أخذت تعيش وكأن ليس هناك غد. والآن لم يعد لها غد فعلاً!

قالت صوفي ببطء وهي تكبح دموعها: «لا، سأخبر جدتي بنفسي. ذلك سيكون أسهل...».

وابتلعت ريقها. إنها لن تنهار أمامه. لن تفعل ذلك: «إذا أخبرتها أنا، سيكون الأمر أقل إيلاماً».

ستحاول أيضاً أن تتصل بوالديها اللذين يمضيان إجازة عمرهما مستمتعين بترف في إحدى جزر المحيط.

- هل أنت واثقة؟

- نعم.

- سيكون ذلك... صعباً. إنها امرأة عجوز.

بدا صوته ناعماً كالزبدة.

قوّت نفسها كيلا تتأثر بذلك الصوت، فمن الضروري أن تبقى غير متأثرة بلويس دي لاكامارا، وذلك لأجل مصلحة الجميع.

- اهتمامك هذا هو مراعاة منك لمشاعرها.

أتراها تسخر منه بلهجتها الباردة الغامضة هذه؟

- طبعاً، لأنها من الأقارب، صوفي... ماذا تتوقعين؟

ماذا تتوقع؟ إنها لا تعلم. وتساءلت كيف بإمكانه أن يلقي عليها سؤالاً

كهذا في وقت كهذا.

لم تتوقع أن تموت ميراندا الحبيبة بهذا الشكل، أو أن ينشأ ابنها من دون أم وبعيداً عن بلدها

مجرد التفكير فيه حوّل صوفي من الحزن إلى الطاقة والعزيمة. فسألته: «متى الجنازة؟»

- يوم الإثنين

وهذا يمنحها ثلاثة أيام.

- سأصل إلى هناك يوم الأحد بالطائرة.

تملك لويس الذعر، ذلك أنه شعر بانتصار مثير وشوق مستحيل لعلمه بقرب رؤيتها مرة أخرى. ولعن جسده الذي خانه إلى هذا الحد. وقال بتوتر: «اتصلي بي إلى بيتي أو مكتبي، لتعلميني بموعد وصولك. عليك أن تطيري إلى مدريد، ثم تنتقلي إلى بامبلونا. سأرتب أمر سيارة تأخذك من المطار هل فهمت ذلك؟».

- نعم، وشكراً.

شكرته وهي تفكر في قدرته على ضبط نفسه. إلا أنها تذكرت أنه دوماً منضبط، وأنه مهما حدث، يبقى لويس دي لاكامارا.

قال لويس برقة وبطء: «إلى اللقاء، صوفي».

وضعت صوفي السماعة بيد مرتجفة، وأخذت تحدق بجمود إلى الجدار أمامها وهي تفكر في ميراندا غير مصدّقة، وقد دار رأسها.

يا لابنة خالتها المسكينة، التي ماتت وحيدة في بلاد غريبة. وحيدة لأنها تزوجت رجلاً مرغوباً... رجلاً حملت بولده واستمتعت بأمواله لكن قلبه كان دوماً مقفلاً في وجهها.

إضافة إلى ذلك، فإن لويس دي لاكامارا ذو عينين سوداوين تنضحان بالقوة وبالمشاعر، ما جعل صوفي تشك بأنه سيبقى أميناً مخلصاً

www.elromancia.com

لزوجته، حتى خلال السنة الأولى من زواجهما. وعلى كل حال، تجاهلت هي الدعوة التي قرأتها فيهما ذات يوم، لأنها كانت تحب ميراندا. لكنها تشك في أن تكون لدى النساء الأخريات مثل هذه الحصانة أمام سحر لويس دي لاكامارا.

والآن على طفل صغير أن ينشأ من دون أم. تحولت نظرات صوفي إلى صورة موضوعة داخل إطارٍ فضي على مكتبها بكبرياء، فتناولتها وأخذت تتأملها. إنها صورة تيودور، وقد أخذت قبل عيد ميلاده الأول مباشرة، أي منذ أسابيع قليلة. يا له من طفل حبيب! إنه لا يشبه أمه بجمالها الأشقر بل يشبه أباه بلونه الرائع. وعندما أخذت تحدق إلى الصورة، عادت صورة وجه لويس الوسيم الصلب تتدفق إلى ذاكرتها بوضوح مرّ.

عندما رأته لأول مرة، لفت نظرها منه عينان سوداوان لامعتان مظللتان بأهداب سوداء كثيفة، كما أن شعره بدا كليلة دون قمر. لقد اصطدمت به في نهاية الطريق فوقف جامداً يحدق إليها بعنف، وكأنه يعرفها من قبل، ولا يصدق عينيه. أما هي فساورها الشعور نفسه. لقد قفز قلبها بعنف وفرح غير متوقع ولهفة شعرت معها بشوق حلو بطيء.

يجب ألا يحدث ذلك لفتاة هادئة ورصينة مثلها. هل يمكن الوقوع في الحب في جزء من الثانية؟ تذكرت بعجز تفكيرها ذاك وهي تحدق في تلك الملامح الأرستقراطية التي يبدو أنها أمضت حياتها بانتظارها.

رأت عينيه تظلمان، وقد تصاعد منهما اللهب فوق وجنتيه العاليتين. وانفرجت شفتاه الصلبتان الممتلئتان من دون وعي.

لم ينظر إليها أحد قط من قبل بمثل هذه الوقاحة والغطرسة. وفكرت في أنه يريدها وهي تريده أيضاً. واجتاحتها موجة ساخنة ووجدت نفسها تتساءل عما إذا كانت قد فقدت عقلها كلياً.

وإذا بميراندا تظهر حاملة زجاجة عصير، وقد فتحت فمها دهشة:

«صوفي؟ يا الله!».

هتفت بذلك ثم رفعت نظرها إلى الرجل من دون أن تلاحظ التوتر الذي يحيط بهما: «يا لها من مصادفة! كنا في طريقنا لرؤيتك، أليس كذلك يا حبيبي؟».

- حبيبي؟

برجفة أعمق من خيبة الأمل، نظرت صوفي ببلادة إلى ميراندا وهي تلمس بألفة ذراع ذلك الرجل الطويل الأسمر صاحب العينين اللامعتين...

تلك الإلفة التي بدت بين قريبتها والرجل الغريب جعلت قلبها يغوص عميقاً في صدرها. فقد أدركت أن هناك صلة ما بينهما.

- صوفي، عزيزتي.. أحب أن أعرّفك إلى دون لويس دي لاكامارا.

قالت ميراندا هذا بزهو ثم ابتسمت لذلك الوجه الأسمر الغامض: «لويس... هذه ابنة خالتي صوفي ميلز».

- ابنة خالتك؟

سألها مقطباً، بينما بدا صوته غليظاً وكأن فيه لمحة من المرارة.

تلاشت نظرته الغازية العنيفة على الفور. ورأت صوفي هزة كتفيه الآسفة التي احتلت مكانها، فأدركت أن دون لويس دي لاكامارا لن يلقي عليها قط تلك النظرة مرة أخرى. لأنها، بصفتها قريبة لخطيبته، لا تصلح أبداً للعبث معها. لكن الرجل الذي ينظر بهذا الشكل إلى امرأة قبل أيام من عرسه، هو رجل عابث. أدركت صوفي ذلك بثقة عمياء، وكرهته لأجل ذلك.

قالت ميراندا بابتسامة عريضة: «حسناً، إننا نمضي كل إجازاتنا معاً، لهذا نحن أشبه بأختين في الواقع! صوفي، نحن ستتزوج! أليس هذا رائعاً؟ طلب مني لويس الزواج!»

ارتجفت صوفي وهي تتذكر الغيرة التي تملكتها. أتكون غيورة من ابنة خالتها؟

أرغمت نفسها على الابتسام وعانقت ميراندا، ثم مدّت يدها إلى لويس. لم يكن أي منهما غافلاً عن الحرارة التي تملكتهما بسبب تلامس أيديهما.

انحنى لويس رافعاً أناملها إلى شفتيه بأسلوب مهذب، يدل بوضوح على سلوك الطبقة الأرستقراطية التي ينتمي إليها. وقد بدت عيناه ساخرتين مكايدتين.

عادوا جميعاً إلى شقتها وشربوا العصير معاً. وبينما كانت ميراندا تفور بالحياة، كان الرجل الإسباني يجلس مراقباً، مختاراً كلماته بعناية. وقد شعرت صوفي أن وجوده في شقتها يحمل تناقضاً ما، فمن جهة وجدته مناسباً جداً لعالمها، بينما أحست أن في ذلك خطأ كبيراً لأنه رجل ميراندا، كما أخذت تذكر نفسها... رجل ميراندا.

أبعدت عنها، بجهد، هذه الذكريات المزعجة، مرغمة نفسها على العودة إلى الحاضر، مركزة اهتمامها على صورة الطفل بدلاً من معالم أبيه البالغة الرجولة.

على الأقل، وجه تيودور ما زال يحمل رقة البراءة، ويمكنها أن ترى فيه قليلاً من الطبيعة المنبعة التي تميّز شخصية لويس.

تساءلت عما سيحدث لتيودور الآن! هل ستتلاشى من ذهنه ذكرى أمه حتى النسيان تقريباً؟ وعضت صوفي شفتها. إلى أي حد سيخدمه الحظ فيعلم بما حدث لأمه، ويتعرف على موطنها الأصلي؟

وفجأة، خفف حس الواجب من بعض الأسى الذي تشعر به. لن يأخذه لويس منا كلياً، وكان هذا تعهداً منها... ستحارب للحصول على فرصة التعرف إليه وكأنه ابنها! وضغطت زر الهاتف الداخلي إلى ناريل بيد

مرتجفة لتطلب منها أن تحجز لها تذكرة إلى إسبانيا

ثم غسلت وجهها ومشطت شعرها ثم استدعت ليام هولينغزوبرث إلى المكتب ما إن رآها ليام حتى أجفل «ما الذي تفعلينه بنفسك بحق الله؟ هل أنت بخير؟».

فقالت وصوتها ما زال يرتجف قليلاً: «لا، ليس تماماً»

- بحق الله، صوفي ما الذي حدث لك؟ ما الأمر؟

- إنها ميراندا، إبنة خالتي لقد قُتلت .. في حادث اصطدام علي علي أن أذهب وأخبر جدتي...

- آه، يا إلهي

- ثم، أسافر إلى إسبانيا لحضور الجنازة.

- آه، حبيبتي!

كان يقف بجانبها عند المكتب، يحدق إليها بنظرة اهتمام. وفجأة راحت تشهق بالبكاء.

- كفى، حبيبتي!

فشهقت: «أواه، يا ليام».

- تعالي.

قال هذا برقة وهو يضع ذراعه حولها. سمحت لنفسها بالبكاء على كتفه قليلاً، ولكن بعد لحظات ابتعدت ووقفت عند النافذة تحدق منها إلى العالم الذي لن يعود بعد اليوم كما كان. ثم قالت بتلبد: «ما زلت لا أصدق».

فسألها: «ماذا حدث؟».

- ما أعرفه قليل جداً. أعرف فقط أنها قتلت في حادث سيارة. كنت مصدومة إلى حد لم أسأل معه عن التفاصيل.

- كيف عرفت؟

- من زوجها لويس اتصل بي وأخبرني

فقطب حاجبيه «ذلك الرجل المليونير؟ ذلك الذي لا نطيقينه؟»

- هو نفسه

قالت هذا متوترة، وهي تفكر أن الحقيقة هي أكثر تعقيداً من مجرد أنها لا تطيق الرجل

- متى موعد الجنازة؟

- الإثنين وسأذهب إلى هناك الأحد ليام، لا أدري إن كنت سأستطيع احتمال ذلك.

فأومأ بتفهم «حسناً، سيكون الأمر صعباً ولكن على الأقل، بعد ذلك لن تكوني بحاجة للقائه مرة أخرى»

هزت صوفي رأسها «لكن ذلك ليس سهلاً ويا ليته كان كذلك! لا يمكنني أن أنفي لويس من حياتي رغم رغبتي في ذلك لا تنسَ أنه والد ابن ابنة خالتي، وأنا مدينة لميراندا وتيودور بأن أكافح لأجله»

بدت هذه الكلمات وكأنها آتية من مكان مجهول في أعماقها.

حدّق ليام فيها «تكافحين لأجله؟ من المؤكد أنك لا تفكرين بطلب الوصاية على الطفل، صوفي؟ إذ لا أمل لك في ذلك خصوصاً إذا كان الرجل غنياً وذا نفوذ كما تقولين. كما أنه والده»

دلكت صوفي صدغيها شاعرة بالتعب: «لا أدري ما أفكر به. ما عدا أن عليّ الذهاب إلى هناك الآن. عليّ أن أجعل ثيودور يعلم أن لديه أقارب وأننا نحبه».

- وعندما تنتهي الجنازة؟ هل ستعودين مباشرة؟

فتقابلت أعينهما: «لا أدري. لا أستطيع تحديد وقت معين، سيبقى بإمكاني القيام ببعض العمل. إذ سوف أستخدم الإنترنت وأظنكم ستتدبرون الأمور هنا من دوني. أليس كذلك؟»

- طبعاً بإمكاننا ذلك. كل ما في الأمر أننا سنفتقدك.

- شكراً.

همست بذلك وهي تغالب دموعها، ثم ابتدأت تجهز حقيبة أوراقها.

كانت معرفتها بليام قديمة. فقد تعارفا في الجامعة، واكتشفا تماثلهما في امتلاك روح النكتة والطموح إلى اكتساب المال. وهذا يفسر ظهور «شركة إعلانات هولينغزويرث ميلز»، وهما الآن يندفعان نحو القمة. امتزاج الحماسة مع استخدام موظفين شبان متألقين مع التطلع إلى أهداف بعيدة متألقة، كان يعني أن ليام وصوفي يقفان الآن على حافة نجاح غير متوقع.

ولكن من يهتم لمثل هذه الأمور. في وقت كهذا؟

وإذ لم تستطع أن تقود سيارتها لارتجاف يديها، استقلت القطار إلى نورفولك. شعرت أن قلبها يبكي على جدتها، فيما هي تصعد مشياً إلى الكوخ الريفي حيث كانت تمضي وميراندا قسماً من عطلاتهما المدرسية كل صيف. كانتا تسيران أميالاً على الشواطىء الخالية الفسيحة، تتسلقان الأشجار، وتطعمان البط السمين في البحيرة بقطع الخبز.

وكانت صوفي تراقب جمال ميراندا الذي راح يزداد يوماً بعد يوم. كما رأت بنفسها تأثير هذا الجمال الخلاب على الرجال.

قرعت جرس الباب القديم الطراز، سائلة الله أن يلهمها الكلمات المناسبة لكي تخبر الجدة بما حدث... عالمة بأنها لن تجد كلمات لا تسبب الألم.

كانت فيليستي ميلز في الثمانين من عمرها تقريباً، وقد علمتها الحياة دروساً قاسية. ألقت نظرة واحدة على وجه صوفي ثم قالت بفتور: «خبر سيء؟».

- نعم. عن ميراندا...

فقالت متخشبة: «ميراندا ماتت، أليس كذلك؟».

* * *

- كيف؟ كيف عرفت؟

همست صوفي تسألها بعد ذلك بوقت طويل، بعد أن ذرفتا الدموع، ثم أخذتا تلتمسان التعزية في النظر إلى صور قديمة لميراندا عندما كانت طفلة، وعندما كانت تخطو أولى خطواتها، ثم بقية مراحل حياتها، إلى صورة تمثلها عروساً مذهلة.

لم تشأ صوفي أن تطيل النظر في تلك الصورة... فترى وجه لويس الأسمر يسخر منها ويسبّب لها وخز الضمير. وعادت تسأل الجدة: «كيف؟».

فتنهدت هذه: «لا أستطيع التفسير! نظرت فقط إلى وجهك فعرفت ذلك. كانت ميراندا إلى حد ما، معرضة لذلك. فقد كانت دوماً تطير صاعدة نحو الشمس ما جعلها معرضة لأن تحترق يوماً ما».

- ولكن كيف أمكنك أن تتقبلي الأمر بهذا الشكل؟

- وكيف لا يمكنني ذلك؟ لقد عشت سنوات الحرب يا حبيبتي. وبهذا تعلمت أن أتقبل ما لا يمكن تغييره.

ضغطت يد جدتها وقالت: «هل هناك... هل هناك شيء أقوم به لأجلك يا جدتي؟».

ساد صمت طويل ثم نظرت الجدة إليها: «هناك شيء واحد... ولكن قد يكون مستحيلاً. أنا أكبر وأعجز من أن أسافر إلى إسبانيا لأحضر الجنازة. لكنني أحب أن أرى تيودور مرة أخرى قبل أن أموت».

ابتلعت صوفي غصة في حلقها. من المؤكد أن هذا الطلب ليس كثيراً حتى على لويس... خصوصاً في هذه الظروف. فقالت بصوت مرتجف:

- سأحضره إليك إذن. هذا وعد.

- ولكن ربما لن يقبل لويس بذلك.

لمعت عينا صوفي بدموع لم تنهمر: «بل عليه ذلك، عليه ذلك».

- هذه خدمة كبرى منه. عالجي الأمر معه برفق، يا صوفي، فأنت تدركين الشعور العنيف بالتملك الذي لديه نحو ابنه. كما تعلمين أيّ نوع من الرجال من تتعاملين معه. أنت تعرفين سمعته. قليلون هم الذين يجرؤون على مواجهته.

- أرجو ألّا يصل بنا الأمر إلى هذا الحد.

قالت صوفي هذا ثم حدقت في جدتها قائلة وقد بان الاضطراب في عينيها: «ألا تكرهينه يا جدتي لأنه جعل ميراندا تعيسة للغاية؟».

فأجابت العجوز ببطء: «ليست السعادة هبة يمنحها شخص لآخر. السعادة تحتاج إلى شخصين، والكراهية هي مضيعة للمشاعر تماماً. وماذا أستفيد إذا أنا كرهت والد ابن حفيدتي؟».

لكن إذا أخرجت صوفي الكراهية من المعادلة، ماذا يبقى لها إذن؟ الجاذبية الطاغية التي كانت ترجو أن يضعفها مرور الزمن.

كل ما تريده هو أن تكون منيعة إزاء شخصيته القوية ووجهه الأسمر الذي لا يُنسى. إنها لم تر لويس منذ عمادة تيودور، أي منذ سنة، عندما أحضرا الطفل إلى إنكلترا. تعمدت صوفي يومها أن تبتعد عن لويس، رغم شعورها بأن عينيه الفولاذيتين تراقبانها و هي تتنقل في أنحاء الغرفة. تساءلت عما إذا كان قد أخلف بعهوده الزوجية حتى الآن. وعندما سنحت لها فرصة للاختلاء بابنة خالتها سألتها إن كان ثمة شيء سيء في زواجهما. لكن ميراندا هزت كتفيها فقط وأجابت بمرارة: «آه، كان على لويس أن يتزوج فتاة إسبانية مطيعة ليّنة لا تحب الخروج من البيت. يبدو أنه لا يستطيع أن يتعامل مع امرأة لا تعجبها حياة البيت الهادئة».

حينها وجّهت صوفي نظرة نارية عبر الغرفة إلى لويس، فلم يقابلها إلا بنظرة ساخرة باردة.

***

هبطت طائرة صوفي في «بامبلونا» في وهج الحرارة التي ما زالت مستمرة حتى أواخر المساء الإسباني، فأسرعت تجتاز البوابات وعيناها تتفحصان الواصلين. توقعت أن تجد بانتظارها سائق سيارة يحمل بطاقة عليها اسمها، ولكن ما هي إلا لحظة حتى رأت شخصاً طويلاً بانتظارها. وبسرعة لاحظت العينين اللامعتين والفم غير الباسم والملامح المغلقة.

بدا أطول من أي رجل آخر هناك. لا شك أن وجهه يجذب النساء كالمغناطيس. لا، إنه لم يتغير، واهتز قلب صوفي بشكل عنيف غير مرغوب فيه.

كان يقف بين الجموع، لكنه يقف وحده. ويبدو أن لويس دي لاكامارا جاء لاستقبال صوفي شخصياً.

***

٢ ـ هل أبعدوها؟

أخذ لويس ينظر إلى صوفي وهي تدخل إلى قاعة الواصلين من السفر. لاحظ من دون أن يبتسم، الرؤوس التي كانت تلتفت إليها فيما هي تسير رغم أنها، هي نفسها، بدت غافلة تماماً عن ذلك. فهي تملك البشرة البيضاء والشعر الأشقر اللذين يجعلان قلوب معظم الرجال الإسبان تذوب. رغم أنها لم تكن تتعمد لفت انتباه أحد مطلقاً. كذلك كانت ابنة خالتها!

شعر بنبضه يتسارع وهي تتقدم نحوه، وثوبها القطني الخفيف يكشف عن ساقيها الرشيقتين وكاحليها اللذين جعلاه يدهش لمقدرتهما على حمل وزنها. تذكر المرة الأولى التي رآها فيها، عندما أسرت خياله بجمالها الطبيعي ورشاقتها وجاذبيتها التي لم تكن واعية لها.

يوم التقاها شعر برغبة نحوها على الفور، ثم احتقر الشعور الحاد الساخن الذي أوحت به إليه، وتلك المشاعر التي لا يستطيع إشباعها أبداً.

وقفت أمامه بشعرها العسلي اللون، وبشرتها البيضاء الشفافة، ورشاقتها التي تماثل في ليونتها شجرة الصفصاف. شعر أن نظراتها تنبىء بعزيمة عابسة تلمع في عينيها الزرقاوين المتألقتين. أحس لويس بالخطر من تلك العزيمة لكنه حاول تجاهلها. كما وجهه قناع من التهذيب الرسمي وهو يحني رأسه محيياً. لو كانت امرأة أخرى لربما قبلها على

www.elromancia.com

الوجنتين، ولكن ليس هذه المرأة. لقد رغب في معانقتها عندما رآها أول مرة. لكن الوقت كان قد فات حينذاك. وهو كذلك الآن!

قال بانحناءة رسمية صغيرة: «صوفي، أرجو أن رحلتك كانت مريحة؟».

بدا طويلاً إلى حدٍ جعلها ترفع رأسها إليه، وغاص قلبها وهي ترى أن رجولته الدفاقة ما زالت بتلك القوة والفعالية اللتين تعهدهما فيه. لكن الطريقة التي تكلم بها كانت أشبه بالسؤال عن حالة الطقس.

لم يبدُ كرجل مفجوع قد فقد زوجته حديثاً. ولأول مرة، تساءلت صوفي عما إذا كانت تلك المأساة، في الواقع، وضعت نهاية مناسبة لزواج شقي.

تمكنت من إبقاء وجهها حيادياً خالياً من أي تعبير وهي تجيب: «كانت مريحة بما يكفي، شكراً».

رغم أن الحقيقة كانت غير ذلك؛ فقد أمضت الساعات القليلة الماضية وهي تحاول أن تقوي عزيمتها لكي تبقى مهذبة ومتبلّدة نحوه. تساءلت عما تكون عليه مشاعره، فالتأثر لا يبدو عليه. لم تر احمراراً في أجفانه أو أثراً لدموع ذرفها على أم ولده. ولكن من يمكنه أن يتصور رجلاً مثل لويس يذرف الدموع؟

بدا لها اليوم شارد الذهن ذا وجه صلب باردٍ، وكأنه قُدّ من رخام عسلي اللون.

لكن مع ذلك، فإن جاذبيته كانت واضحة إلى درجة بالغة. يبلغ طول لويس حوالى الستة أقدام، كتفاه عريضتان قويتان. بنطلونه الصيفي الخفيف لم يخف تماماً قوة ساقيه الجبارتين المنتصبتين أشبه بعمودين. وتحت كمي قميصه القطني القصيرتين، بدت عضلاته المفتولة مظهرة قوة

ذراعيه.

إلا أن أكثر ما يسترعي الاهتمام فيه، وجهه الذي يحمل طابع أجيال من الأرستقراطية الإسبانية. فقد ظهرت عليه كبرياء تصل إلى حد القسوة، حيث لا يخفف من صلابة ملامحه سوى شفتيه الممتلئتين اللتين تنضحان بالإيحاءات.

لا عجب في أن تغرق ابنة خالتها في فرامه رأساً على عقب. فكرت صوفي في ذلك وقد تملكها حزن مفاجىء تركها مقطوعة الأنفاس.

لاحظ لويس أثر الدموع التي بللت عينيها الزرقاوين، وفضح ارتجاف شفتيها حزنها. مدّ يده ليمسك بيدها، فإذا بها بالغة الضآلة والبرودة في يده.

قال بجد بالغ: «لك تعازي الحارة».

رفعت وجهها، وهي تحبس دموعها. وسحبت يدها من يده الدافئة، وقد شعرت باليأس من هذه المشاعر الواضحة بينهما. تلك المشاعر التي تأمرها بأن تبقي يدها حيث هي بالضبط.

ـ شكراً.

أجابت برقة، تاركة نظراتها تسقط إلى الأرض، كيلا تقرأ عيناه الفطنتان السوداوان ما كان يدور في ذهنها.

نظر إلى رأسها المحني وكتفيها المتصلبتين: إنها حزينة على ابنة خالتها، كما ذكّر نفسه، رغم أن لمعان التحدي حتى الغضب تقريباً كان ظاهراً في عينيها. ولم يكن فيه الكثير من الحزن بكل تأكيد.

ـ تعالي، صوفي. السيارة بانتظارنا وأمامنا رحلة طويلة نوعاً ما. دعيني أحمل حقيبة ملابسك.

بدا كلامه أمراً أكثر منه عرضاً للمساعدة. ورغم أنها أرادت أن تحمل حقيبتها بنفسها، رأت أن لا فائدة من معاندة رجل مثل لويس.

سيلح على ذلك، كما أخبرتها غريزتها، تماماً كما اعتادت ابنة خالتها أن تخبرها عن أسرارهما. إنه من سلالة من الرجال ذوي السلطة، رجال يرون بوضوح الخطوط المرسومة بين أدوار الجنسين.

قد تكون إسبانيا الآن دولة عصرية كغيرها من دول أوروبا، لكن أشباه لويس من الرجال لا يتغيرون مع الزمن. إنهم يستمرون في اعتبار أنفسهم أولئك الغزاة العظماء المتفوقين... وأسياد كل المرئيات.

رأت النساء يرمقنه وهو يمرّ بنظرات جانبية بعضها خجول وبعضها الآخر متشوّق.

لم تستطع أن ترى ما يجول في عينيه، وتساءلت إن كان يبادلهن تلك النظرات الجائعة.

ربما! ألم يفعل ذلك معها؟ قبل أن يكتشف هويتها؟ وهو طبعاً الآن، من دون زوجة، يمكنه أن يتصرف كما يريد. فيمارس سحره ليحصل على أية امرأة يريدها.

كان مبنى المطار مكيفاً، ولكن عندما أصبحا خارجه، لفحت وجهها حرارة قوية أشبه بقفاز مخملي، رغم أن الوقت قد تجاوز الظهيرة.

رآها لويس تجفل تحت وطأة الحرارة، فأدرك أن عليه أن يحذرها من أخطار الشمس.

ـ لماذا لا تخلعين سترتك؟

فقالت متوترة: «أنا بخير».

فتصلب فمه: «كما تشائين».

ولحسن الحظ، أن السيارة كانت مكيفة. وانتظرت صوفي إلى أن

خرج من موقف السيارات متجهاً نحو الطريق فالتفتت إليه قائلة: «أين تيودور؟».

ـ في البيت.

ـ أوه.

سمع خيبة الأمل في صوتها: «هل تصورت أنني سأحضره في هذا الطقس الحار، لكي ينتظر طائرة قد تتأخر؟».

ـ ومن يعتني به إذن؟

هل يحمل سؤالها تأنيباً؟ تساءل عن ذلك غير مصدق. أتراها تظن أنه يترك الطفل وحده؟

ـ إنه تحت رعاية مربيته...

رآها تقطب بحيرة فعلم أنها مثل ابنة خالتها لا تعرف الإسبانية على الإطلاق.

ساد صمت قصير. ما الفائدة من إخفاء الأمر عنها؟ سرعان ما يشيع الخبر بين الناس.

كان يفكر بالإسبانية فانزلقت الكلمات من بين شفتيه من دون وعي. ومع أنها لا تفهم الإسبانية لكنها استطاعت أن تفهم ما يقول من لهجته الثقيلة الفاترة. فأغمضت عينيها بيأس: «آه، يا إلهي، إسراف في الشرب؟».

ـ لم تصدر بعد نتيجة الاختبار.

تملكها غضب عنيف... ولأول مرة لم يكن غضبها من الرجل الذي يجلس إلى جانبها بل من ميراندا. لقد كانت أماً بكل ما في هذه الكلمة من مسؤولية. ولديها طفل عليها أن ترعاه، فكيف كانت بهذا الغباء بحيث تخرج في سيارة سائقها ثمل؟ إلا إذا كانت لا تعلم ذلك.

لكن ميراندا لم تكن غبية. كانت عنيدة صلبة، لكنها لم تكن غبية.

إلا إذا كان هذا الرجل الذي يقود سيارته في أنحاء الريف الإسباني المظلم بخبرة بالغة قد جعل حياتها من التعاسة بحيث لم تعد تهتم بالمنطق ولا بسلامتها الشخصية.

وهزّت رأسها. لم يكن ثمة مبرّر يجعل ميراندا تخرج من بيتها مع سائق ثمل مهما كانت حالتها الزوجية. فهي دوماً كانت حرة في أن تنهي هذا الزواج.

وألقت صوفي نظرة جانبية على الرجل الذي بجانبها. أم أنها مخطئة؟ ماذا لو أن ميراندا حاولت أن تهرب آخذة معها تيودور؟ أما كان لويس استعمل نفوذه وسلطته لإيقافها؟

أدارت رأسها وضغطت خدها على زجاج النافذة البارد، ثم نظرت إلى الخارج، شبه مأخوذة بجمال البرية.

كان المنظر حولهما بنفسجياً داكناً والنجوم الساطعة ترصع السماء وقد بدت أكبر حجماً وأكثر تألقاً منها في إنكلترا. وبدا موطنها فجأة بعيداً جداً. ثم تذكرت أن لديها مسؤوليات هي أيضاً.

مدت يدها إلى حقيبة يدها وأخرجت هاتفها الخليوي، وسألته: «هل يعمل هذا الهاتف هنا؟».

ضاقت عيناه وهو ينظر إلى الهاتف: «هذا يعتمد على نوعيته. ولكن لدي هاتف يمكنك أن تستعمليه».

ـ هل لديك هاتف خليوي معنا في السيارة؟

فالتوى فمه بابتسامة عابسة: «هل تتصورينني أجري اتصالاتي بواسطة أعمدة التلغراف في الأدغال؟ ستجدين هنا كل أجهزة الراحة العصرية، حتى هنا في «لاريوجا» يا صوفي».

ومع ذلك بدا أن كلماته تسخر من حقيقة وجوده. لقد قال (أجهزة الراحة العصرية) فيما هو، بشروده ولونه الأسمر، يبدو كأنه يمثل نقيض كل ما هو عصري.

أخذ ينظر إليها وهي تضغط على الأرقام ثم سألها برقة: «هل اتصالك هذا من الأهمية بحيث لا يمكن أن ينتظر وصولنا إلى البيت؟».

ـ عليّ أن أخبر شخصاً ما بأنني وصلت سالمة.

ـ أظنه رجلاً؟

في الواقع، نعم، إنه رجل.

هذا الأمر ليس من شأنه، ولكن فلتدعه يفسر كما يريد. لا بد أنه يفعل. وفكر لويس: من الواضح أن في حياتها رجلاً. هل تربطهما علاقة قوية؟

وتم الاتصال:

ـ ليام؟ هاي، هذا أنا.

إلى جانبها كان لويس يحدق إلى الطريق أمامه، متسائلاً عما إذا كانت تشبه ابنة خالتها في ميلها إلى الحرية في العلاقات. وقعت نظرته عن غير عمد على ساقيها، ولم يكن مستعداً لوخزة الغيرة المفاجئة، لتصوره أنها تقيم علاقة مع رجل آخر.

ذكر نفسه بأنه عرف نساء كثيرات مثلها... ذوات شعر أشقر وأعين كبيرة زرقاء وأجساد رشيقة. لهن أجساد نساء ولكن بعقول رجال، فهن يتصرفن كما يتصرف الرجال منذ سنوات. ما إن يردن شيئاً يرغبن فيه حتى ينطلقن للحصول عليه.

ألم ترغب فيه صوفي ذات يوم؟ لكن ذلك حصل قبل أن تكتشف أنه سيتزوج ابنة خالتها، تماماً كما رغب هو فيها... كانت رغبة لا مثيل لها،

أشبه بصاعقة رعدية صعقته وتركته متشوقاً ذاهلاً. لقد حدث ذلك لها أيضاً. رأى هذا بنفسه واضحاً كالشمس

أخذ يستمع دون خجل إلى حديثها بينما السيارة تقطع الأميال

- لا، أنا في السيارة الآن مع لويس... فترة صمت ثم. «لا لا، حقاً».

فترة صمت أخرى ثم نظرت إلى ساعتها: «إنها التاسعة تماماً لا، لا بأس في ذلك. نعم. أعرف هذا، لكنني لا أستطيع أن أتكلم الآن في الحقيقة. نعم. لا بأس. شكراً يا ليام. أنا أرجو ذلك أيضاً لا بأس سأفعل هذا. سأتصل بك نهار السبت».

قطعت الاتصال وأعادت الهاتف إلى علبته. وقالت بجحود «شكراً».

ساد صمت عميق خطر عندما رآها تضع ساقاً رشيقة بيضاء فوق الأخرى، وسألها بنعومة بينما الدم ينبض في رأسه: «هل اشتاق إليك صديقك بهذه السرعة؟».

لم تصدق أذنيها. هذا القول كان من الفظاعة بحيث بقيت صوفي خرساء للحظة: «عفواً، لم أسمع جيداً».

ظهرت على وجهه شبه ابتسامة، بدت في العتمة غاية في الجمال والجاذبية. ومع ذلك ظل بإمكانها أن تحوّل صوتها إلى جليد، فقالت: «ليام، في الواقع، هو شريكي في العمل».

- آه.

ثمة شيء قاتم، غامض، يحمل الخطر في هذه الكلمة. شعرت صوفي بخفقات قلبها تزداد لا لشيء أكثر من مجرد الخوف: «هل هناك... شخص آخر مقيم في البيت؟».

سمع في صوتها رجفة، فشعر بتسلية رغم أنها جذبته وأشعرته

بالإحباط. أتراها خائفة منه أم من نفسها؟ هل ما زالت تريده؟

سألها بعفوية: «أتعنين عدا تيودور؟».

- أنت تعلم أنني أعني ذلك.

- إحدى نساء المزرعة تأتي لتساعد في إطعامه. وبيرو، وهو البستاني والطاهي عندي، يعيش في البيت مع زوجته سلفادورا. إنها مربية تيودور، كما كانت مربيتي أنا من قبل، عندما كنت طفلاً.

- عندما... متى؟ من قبل أن تموت ميراندا؟

سألته صوفي وهي تفكر في أن سلفادورا لا بد معتادة قليلاً على الطفل الآن.

فتمتم مراوغاً: «آه، قبل وقت طويل من ذلك. ابني متعلق بها، سترين ذلك بنفسك».

اكتسحتها موجة سخط تبعها شعور آخر أكثر بدائية. أتراهم أبعدوا ميراندا عن ابنها إلى هذا الحد؟ أترى المرأة الإنكليزية أبعدت جانباً لتحتل مكانها أم بديلة... إسبانية تعلم تيودور لغة وتقاليد أبيه؟

حسناً، لن يدوم هذا مدة أطول بكثير، كما تعهدت صوفي. إنها، بشكل ما، ستعلّمه شيئاً من تراث أمه. وعادت تفتش في حقيبة يدها عن فرشاة الشعر هذه المرة.

قال وهو يلوي فمه: «لن يتأثر أحد هنا بجمالك، عزيزتي».

ما عداه هو! وعندما رفعت رأسها، راح يراقب خطوط عنقها الطويل وصدرها الرائع.

- لم أفكر بذلك على الإطلاق!

وأخذت تمشط شعرها العسلي الجميل بعناية، فقد أصبح لزجاً بعد رحلتها الطويلة هذه: «كل ما في الأمر أنني أريد أن أكون لائقة عند وصولي».

ورأت الأضواء تلوح من بعيد فسألته «هل قاربنا الوصول؟».

- نعم. نحن على وشك اجتياز كروم العنب.

عادت تنظر من نافذة السيارة. إنها كروم «لاكامارا» الشهيرة. أكبر كروم في المنطقة. والتي يصنع منها عصير ممتاز يصدّر إلى كل أنحاء العالم.

استندت إلى الخلف في مقعدها وأغمضت عينيها.

نظر لويس إليها مقطباً قليلاً، وهو يرى توتر كتفيها. تساءل عمّا إذا كانت على وشك البكاء. ورقّ صوته بشكل غريزي: «هل أكلت في الطائرة؟».

- لا. كان طعاماً لا يمكن تمييزه في صوانٍ من البلاستيك، كما أنني لم أكن جائعة.

- إذن ستتعشى معاً حين وصولنا.

- لكن الوقت متأخر بالنسبة إلى العشاء.

- نحن في إسبانيا نتأخر في تناول العشاء. ألا تعرفين هذا؟ ألا تعلمين أن الإسبانيين يطيلون السهر أكثر من أي شعب في أوروبا؟ فهم يعتبرون الذهاب إلى الفراش قبل الثالثة صباحاً انتقاصاً من شرفهم الشخصي.

فهزت صوفي رأسها: «أنا لم أحضر إلى إسبانيا سوى مرة واحدة لمناسبة عمادة تيودور».

- إذن فقد فاتك الكثير.

بدا صوته الآن عميقاً رقيقاً تقريباً، ما جعله يبدو عطوفاً: «وأتمنى أن تكون زيارتك هذه المرة في ظروف أسعد، يا عزيزتي. من المؤسف أن ما سترينه من بلادي قبل عودتك إلى وطنك سيكون قليلاً جداً».

ساد صمت مشحون، تجاهله صوفي. لكن لويس عاد يقول: «بالمناسبة، لم تخبريني كم ستمضين هنا؟».

- لا. لم أخبرك.

- إذن؟

سرها وجود الظلام لأن طريقة لفظ كلمته تلك كانت أقرب إلى التهديد.

- أنا غير واثقة.

لن ترحل قبل أن تتأكد أن بإمكانها اصطحاب تيودور معها في عطلة إلى انكلترا ليرى جدة أمه. أما الآن، فالوقت غير مناسب للحديث عن ذلك.

ثم ذكّرت نفسها بأنها، بصفتها ضيفته، عليها أن تكون مهذبة: «أحب أن أقيم عدة أيام على الأقل وربما أكثر، إذا وافقك ذلك. أحب أن أتملّى من رؤية تيودور».

ضاقت عيناه. لا! ذلك لا يوافقه. إنه لا يريد تلك المرأة في بيته مدة أطول مما هو ضروري... وذلك لسببين سهلين ومع ذلك معقدين للغاية: . إنه يرغب بها، لكنه لا يستطيع أبداً أن يجعلها له. لا الآن، ولا فيما بعد...

إلا أنه قال برقة: «الإسبان مشهورون بحسن الضيافة، يا صوفي، ولهذا منزلي هو منزلك للمدة التي تريدينها».

أومأت صوفي. هذا إلا إذا جعل إقامتها هنا مستحيلة: «شكراً».

- أهلاً وسهلاً.

صعدت السيارة طريق المنزل المرصوف بالحصى والمظلل بأشجار غريبة رأت صوفي من خلالها أضواء البيت المرحبة بها.

فتح باب السيارة فخيل إليها أنها تشم روائح أشجار البرتقال والليمون، وكان نسيم الليل مغمساً بروائح براعم الأزهار الغريبة.

نظرت إلى المبنى الفخم المهيب الذي يبدو وكأنه موجود منذ الأزل.

إنه يوحي بحس بالجمال والتاريخ، من المستحيل إنكاره بالرغم من الظروف المحطمة للقلب التي أحضرتها إلى هنا.

ثم، إذا بسواد هاتين العينين الساخرتين يغمرها، وهو يقول برقة: «مرحباً بك في بيتي، صوفي».

***

٣ - من يدفع الثمن؟

كان بيت المزرعة من الداخل بارداً منعشاً، ولا بد أن هناك من علم بوصولهما. فما إن تناول لويس معطف صوفي ووضع حقيبة ملابسها على الأرض، حتى ظهرت امرأة متوسطة في السن في آخر الردهة. نظرت إلى لويس بابتسامة دافئة قائلة بالإسبانية: «مساء الخير، سيد لويس».

رأت صوفي وجهه يشع عطفاً وهو ينحني ويقبلها على خديها: «مساء الخير، سلفادورا».

قال بالإسبانية شيئاً بسرعة، ثم قال لصوفي بالإنكليزية ببطء وعناية: «هذه سلفادورا، مربية تيودور. هذه صوفي ميلز، إبنة خالة ميراندا».

- مساء الخير.

قالت صوفي هذا بالإسبانية بأدب. راودتها أفكار متشككة وهما في السيارة، في أن هذه المرأة أكبر سناً من أن تتحمل مسؤولية طفل لم يكد يتجاوز سنته الأولى، وها قد تعززت أفكارها تلك لدى رؤيتها لمظهر هذه المرأة المنهك الهش. خيل إلى صوفي أن الحذر بدا على وجه المرأة، فقد ضاقت عيناها وهي تشملها بنظراتها من أعلى إلى أسفل، لكن الحذر عاد فتحوّل إلى انحناءة احترام خفيفة: «مساء الخير، سينورا ميلز. آسفة جداً لموت ابنة خالتك المفاجىء».

عضت صوفي شفتها، وحدثت نفسها بأنها لا تريد دموعاً. بإمكان الدموع أن تنتظر: «شكراً».

www.elromancia.com

ثم تابعت، بجهد بالغ وبابتسامة مرتجفة: «أنت تتكلمين الإنكليزية بشكل جيد سلفادور!».

أومأت سلفادورا برزانة: «شكراً، دوماً كنت كذلك. كان لدى السيد لويس معلم للغة الإنكليزية عندما كان صغيراً، فتعلمت معه أنا أيضاً!».

حاولت صوفي أن تتصور لويس صبياً صغيراً، يتعلم الإنكليزية، ولكن لم يكن سهلاً أن تتصوره ذا وجه ناعم بريء كوجه ابنه.

ـ وطبعاً، من الضروري أن تعرف مربية تيودور لغة أمه.

قال لويس هذا فالتفتت صوفي إليه: «لماذا؟».

ـ لكي تتمكن المرأتان من التفاهم، أليس كذلك؟

قال هذا بجفاء، وعندما رأى الدهشة على وجهها تصلب وجهه. هل تتصور أنه ينكر على ابنه تراث أمه؟ هل تظنه شيطاناً شريراً؟

وتساءلت صوفي، ولم تكن تلك المرة الأولى، عما جعل ميراندا تحتاج لمن يعاونها في تربية تيودور. فلم يكن لديها وظيفة خارج البيت، كما أنها لم تكن تعمل داخل البيت، كما عرفت من اتصالاتها الهاتفية. تذكرت كم بدت ميراندا مسرورة عندما اكتشفت مبلغ ثراء لويس ونفوذه.

ـ إنه ليس رائعاً فقط، وإنما ثري أيضاً، يا صوفي. ثريّ تماماً!

قطبت صوفي حاجبيها عند ذلك وهي تتساءل عما إذا كانت طفولة ميراندا المتقشفة قد أعمت عينيها عن الحقيقة. وأجابتها: «نعم، لكن المال ليس كل شيء، صدقيني! ما دمت سعيدة يا ميراندا، هذا هو المهم».

ـ آه، لكنني سعيدة تماماً! كيف يمكن ألا أكون سعيدة في وضعي هذا، مع رجل مثل لويس؟ ثم ما أروع أن يكون لديك خدم. لا أستطيع أن أصف لك.

موقف ميراندا هذا لم يعجب صوفي، مع أنها شعرت بوخزة من

الغيرة، لكنها لم تقل شيئاً حينذاك. وحتى لو أنها قالت، ما كان ذلك سيشكّل فرقاً. فلطالما كانت ميراندا مستعدة للقتال بأسنانها وأظافرها للحصول على ما تريد. وقد أرادت لويس! وأي عاقل يلومها لهذا؟

قطع أفكارها صوته العميق: «ستأخذك سلفادورا إلى غرفتك الآن، يا صوفي».

قال لويس هذا وهو يراقبها عن قرب، متسائلاً عما جعلها تقطب جبينها بهذا الشكل، وسبّب لها قشعريرة برد انكمش معها جلد ذراعيها النحيفتين، فبدتا باردتين ضعيفتين.

تلك النظرة الثاقبة أذهلتها، لكنها أرغمت نفسها على أن تتذكر السبب الرئيسي لقدومها إلى هنا: «هل... هل يمكنني أن أرى تيودور أولاً... من فضلك؟».

رأى مبلغ شحوبها وتوترها، والظلال الخفيفة تحت عينيها ما جعل وجهها الجميل يبدو شارداً. فهز رأسه بعزم: «أولاً، يجب أن تأكلي شيئاً».

ـ ولكن...

ـ لا اعتراضات، صوفي. اغتسلي وغيّري ثيابك أولاً، ثم نتناول العشاء.

لم تتعود مثل هذه السيطرة من أي رجل، وأوشكت أن تحتج لولا أن وميضاً متسلطاً في عينيه الفاحمتين أنذرها بأن احتجاجها سيقابل بأذن صماء، وأنها سترى الطفل حين يسمح لها بذلك. وعليها أن تنهي الوجبة كلها أولاً. قالت، غير راغبة في الجلوس معه وحدها، خوفاً من اضطرارها إلى مسايرته طوال الوقت، أو صدّ الأفكار الممنوعة: «لا ضرورة إلى إزعاج أنفسكم بتقديم عشاء لي. يكفيني أن أتناول شطيرة في غرفتي».

ضاقت عيناه غيظاً لرفضها ضيافته: «من غير الجائز عدم تقديم الطعام إلى ضيف قادم من رحلة طويلة، هذا إلى أن أمامك غداً يوماً طويلاً مرهقاً. ستنضمين إليّ في غرفة الطعام لتناول العشاء».

هكذا هو مرة أخرى... يأمرها بدلاً من أن يسألها! ماذا سيفعل إن هي أصرت على البقاء في غرفتها؟ ولكن ألا يبدو هذا غباء منها؟ لا يمكنها أن تختبىء منه طوال مدة وجودها هنا. من الأفضل إذن أن تعتاد على تناول الطعام معه، مهما كانت هذه الفكرة مفزعة لها ومثيرة في الوقت نفسه. ومن المؤكد أن الوقت غير مناسب الآن للتفكير بهذا الشكل!

فأومأت: «لا بأس. سأغيّر ملابسي ثم أنزل مرة أخرى».

ـ سأكون في الانتظار.

شعرت صوفي بشيء من عدم التحكم في نفسها وهي تتبع المرأة العجوز إلى الطابق الأعلى. راحت تتساءل كيف يمكن أن يعتاد المرء على أن ينال كل أمنياته.

رغم أن راتبها هو أكبر من مجرد مربح، فقد كانت دوماً تفتخر باستقلالها. فهي خلافاً لأكثر صديقاتها، لا تستأجر من تنظف لها شقتها، كما أنها لا ترسل قمصانها إلى المصبغة لتنظيفها. دوماً كانت أمها تكرر عليها القول إن تكليفك من يقضي لك شؤون حياتك هي مهمة تجعلك تبتعدين عن حياتك نفسها.

كم هي الحياة مختلفة هنا، مع البستانيين والطهاة والنساء اللاتي يعتنين بالأطفال.

كانت غرفتها المنعزلة باردة يحتلها سرير عريض بسيط مغطى بملاءات ناصعة البياض. وقد وضع إناء فيه أزهار بيضاء لم تعرف نوعها على المنضدة، كما كانت هناك مروحة في السقف.

تمنت صوفي لو أن بإمكانها أن تستلقي فقط وتغمض عينيها، لكنها

تعلم أن مضيفها غير المتسامح في انتظارها.

أشارت سلفادورا بإصبعها: «الحمام هناك. أتحتاجين إلى شيء يا سينورا؟».

السلام هو في قمة قائمتها، لكن لا سلام يلوح في المستقبل المنظور، مع وجود لويس الذي يبدو أشبه بملاك أسمر مغرٍ. أزاحته من ذهنها لأن هناك أشياء أهم بكثير تريد أن تعرفها.

سألت: «كيف حال تيودور؟».

مجرد ذكرها اسم تيودور أدفأ قلبها: «هل يفتقد أمه كثيراً؟».

مضت لحظة لم تجب فيها سلفادورا، وكأنها لم تفهم بعد أنه سؤال بسيط. ثم قالت بحذر: «طبعاً. إنه يعلم أن ثمة شيئاً حصل، إنه يبكي، لكننا سرعان ما نجعله يضحك مرة أخرى».

شعرت صوفي بالغثيان (إنه يعلم أن ثمة شيئاً حصل)؟ لكن الطفل فقد أمه، وها هي ذي سلفادورا تجعل الأمر وكأنه ألقى بلعبته من عربته! ولكن لدى سلفادورا سلطة أيضاً، سلطة على تيودور، اكتسبتها من قربها منه ورعايتها له. وهي، أي صوفي، بحاجة إلى أن تخبرها بأنها تحب الطفل وهذا سبب حضورها إلى هنا. فقالت برقة: «أرجو أن أساعد أنا أيضاً في جعله يضحك. شكراً يا سلفادورا. أرجوك أن تخبري لويس بأنني سأنزل للعشاء بسرعة».

ـ نعم سنيورا.

علقت صوفي ملابسها، وارتاحت وهي تغتسل لتتخلص من آثار السفر. ربطت شعرها المبلل في ضفيرة ولبست ثوباً قطنياً. كان البنطلون سيشعرها براحة أكبر، لكنها خافت من أن يكون للعشاء في هذا المنزل الفخم صفة رسمية معيّنة.

وكانت على صواب!

عندما دخلت غرفة الطعام، رأت أن لويس قد جلس إلى مائدة مستطيلة مجهزة لشخصين، وكان قد غير ملابسه.

ما إن وقعت عيناها عليه حتى تسارعت ضربات قلبها بشكل مفاجىء. لقد استبدل القميص القصير الكمين بقميص ناصع البياض يبرز عضلات جسمه الصلب. وقد ترك الزرين العلويين مفتوحين، فبدت بشرته السمراء والشعر الأسود الذي يكسو صدره. وعندما نهض واقفاً لدخولها بدا بنطلونه الأسود في غاية الأناقة، وكأنه قادم لتوّه من إحدى اللوحات المعلقة على الجدران، والتي تمثل صور أجداده. جفّ فم صوفي حتى أصبح كالرماد.

قال لويس بلهجة رسمية وهو يقف: «مساء الخير. أرجو أن يكون كل شيء حسب رغبتك».

مضت لحظة نسيت صوفي فيها كيف تسير بشكل صحيح، فوقفت مترنحة عند العتبة وهي تتشبث بمقبض الباب بأصابعها المرتجفة لتسند نفسها. أدركت أنها أصبحت وحدها مع هذا الرجل الرائع الذي ترغب فيه وتخاف منه في الوقت نفسه. قطب جبينه وهو يرى شحوب وجهها الذي جعل بشرتها تبدو شفافة. وخاف من أن يغمى عليها فجأة، فأسرع نحوها: «هل من خطب؟».

هل من خطب! بالطبع! إنها تشعر بكل ما عليها أن لا تشعر به، ما لا تريد أن تشعر به. أفكار قاتمة اكتنفتها وسجنتها بين تصورات ممنوعة. ووجدت نفسها تدعو الله أن يرحمها ويريحها من هذه المشاعر. عليها أن تركز مشاعرها على تيودور وعلى ذكرى ميراندا... وليس على تأثير مضيفها الذي يذيب العظام. وهزت رأسها: «لا، أنا بخير».

- إجلسي إذن من فضلك.

وجذب لها كرسياً، ثم عاد إلى مقعده: «لأنك لا تبدين لي بخير».

جلست على مقعدها شاكرة، ورغبة منها في إلهاء نفسها، لم تنظر إلى عينيه الفاحمتين، بل أجالت نظرها في المكان، متأملة بجلستهما الرسمية إلى العشاء.

كانت المائدة مجهزة بأفخر أنواع الفضيات وأبهى الأزهار، ومضاءة بالشموع. فكرت صوفي أنها من نوع الموائد التي تحتاج إلى عصا البلياردو كي تدفع المملحة من ناحية إلى أخرى، فقد كانت طويلة جداً. لم يحدث قط من قبل أن بدا لها تناول شطيرة في غرفة النوم بمثل هذه الجاذبية والأمان.

قالت وهي تبتلع ريقها: «ما كان لك أن تتكبد كل هذا العناء لأجلي!».

رفع حاجبيه متسائلاً بغطرسة: «عناء؟ أؤكد لك أن هذا العشاء هو كالعادة بالضبط».

فكرت صوفي أن ذلك أمر طبيعي. فهي لا تتصور لويس من أولئك الرجال الذين يتناولون عشاءهم على صينية أمام التلفزيون! قالت بشيء من الضعف: «آه، فهمت!».

أخذ يتأملها. لم يكن يتوقع نزولها بعد، وكان يتصورها تغير مظهرها في غرفتها. لكنه لاحظ أن وجهها لم يُمس ولا يزال كما رآه في المطار. لم تعبأ بوضع أية زينة عليه، كما أن شعرها ما زال مبللاً من الدوش. وقد جعلها ثوبها تبدو نظيفة منعشة وأصغر من عمرها بكثير كما منحها مظهراً بريئاً. والتوى فم لويس بسخرية؛ لقد اعتاد على نساء يفعلن أي شيء للتأثير عليه. يضعن زينة الوجه بحذر ودقة ويرتدين أزياء مصممة بعناية بحيث تظهر جمالهن ورشاقة أجسامهن. في وقت كهذا لم يكن يتوقع ملابس فاخرة عليها، لكنه توقع أن تبذل ولو بعض الجهد فوق العادة.

بدا واضحاً أن صوفي ميلز لا تحاول التأثير عليه، فثوبها القطني متواضع قدر الإمكان، ومع ذلك جعلت بساطته جسمها يبدو أكثر إغراء بدت مزيجاً مثيراً من البراءة والحنكة شعر لويس بالإثارة على كره منه، وفكر أن هذا التأثير قد يكون متعمّداً. ربما هي تعلم بالضبط ردة فعل الرجل إزاء المرأة ذات المظهر البريء.

قال بهدوء: «أرجوك أن تتناولي حساءك».

أخذت ترتشف الحساء إلا أنها لم تستطع أن تقاوم انجذاب نظراتها إلى مضيفها.

آه، كم يبدو مثبطاً للهمة! ليس فقط لجلوسه في الطرف الآخر للمائدة. لا، بل تلك الروعة الهادئة، وذلك البريق المحزن الذي يلمع في عينيه البعيدتي الغور، كانا يمنعانها من التحدث إليه.

ـ سنيور؟

نظرت صوفي حولها فرأت فتاة إسبانية رائعة الجمال، صغيرة السن، تقف عند الباب.

فقال لصوفي مشيراً إلى زجاجة: «أتريدين عصيراً؟» وكانت هي بحاجة إلى شيء ينعشها: «نعم.. رجاءً».

تمتم بالإسبانية فأسرعت الفتاة على الفور تسكب العصير في كأس صوفي البلورية ثم أكملت لتملأ كأس لويس.

شربت صوفي قليلاً من العصير: «إنه... لذيذ».

فرفع كأسه بنظرة مفكرة: «أظن علينا أن نشرب نخب الشكر لله لأجل حياة ميراندا».

وكان هذا أكثر مما تحتمل! وضعت صوفي كأسها على المائدة بيد مرتجفة، وقد عجبت للمقدار الذي يمكن أن يصل إليه نفاق الرجل. أليس لديه فكرة أن ميراندا قد أفضت إليها بأن الدون لويس المدمّر الجاذبية لديه

قلب من الثلج؟

فسألته «أتعني حياتها بشكل عام، أم حياتها هنا؟ وإذا كان الأمر كذلك، فهذا لن يكون نخباً بهيجاً، أليس كذلك يا لويس؟».

يا لمشاعرها المحمومة! كما أخذ يفكر وهو يرى الغضب يلتهب في عينيها كالكهرباء. فواجه التحدي فيهما شاعراً بالنبض يخفق وامضاً بالحياة في صدغيه. سألها بجدية: «وهل كانت تلك حياة فظيعة؟».

لم تهتز نظراتها، وخرجت الكلمات من فمها بسرعة ملؤها المرارة: «يا ليت الله لم يجمعها بك!».

أومأ لويس ببطء. لو لم يقابل ميراندا لما كان لديه تيودور، وهو لا يتصور حياته من دون ابنه هذا. كم أخبرت ميراندا صوفي عن حياتها معه؟ أخذ يتساءل وهو يضع كأسه وينظر إليها متأملاً. ثم سألها ببطء: «صوفي، هل تعرفين كيف بدأت علاقتي بميراندا؟».

ـ أعلم أنك التقطتها من الطائرة حيث كانت تعمل كمضيفة.

جمد مكانه: «التقطتها؟».

انطلقت هذه الكلمة من فمه بكبرياء غاضبة وكأنها رصاصة: «أتظنينني من نوع الرجال الذين يدورون حول العالم، يعرضون حبهم على مضيفات الطائرات؟».

ـ وما أدراني؟ لم تنقصك النساء قط، أليس كذلك؟ لم أسمع بذلك.

جعلته يبدو وكأنه أحد قطط الأزقة. صرف لويس بأسنانه: «أنا لا أنشيء علاقات من دون تمييز. ولم أكن كذلك قط».

ألقت عليه نظرة باردة غير مصدقة: «أحقاً؟».

فقال بلهجة خطرة: «صوفي...».

ثم سكت. إنها هنا ربما لأيام معدودات فلماذا يسوّد ذكرياتها ويغامر بجعل حزنها لفقد قريبتها أسوأ مما هو عليه؟

وعندما لاحظت سكوته سألته: «ماذا؟».

فهز رأسه: «لا شيء».

ما الذي يخفيه عنها؟ ما الذي لا يجرؤ على إخبارها به؟ فقالت بعناد: «أريد أن أسمع قولك أنت عن كيفية تعارفكما».

سادت لحظة صمت، ثم أخذ يسرد ذكرياته برقة وابتسامة جافة: «كنت أقوم برحلة عمل بالطائرة إلى نيويورك. أحضرت لي ميراندا شراباً ثم كتبت اسم فندقها على الفوطة المرافقة للكأس مقترحة أن نتقابل هناك لتتناول شراباً».

- وأظن أنك لم تستطع أن تقاوم هذا العرض».

- ولماذا أقاومه؟ كانت فتاة جميلة مليئة بالحياة.

أخذت صوفي رشفة أخرى مرتجفة من شرابها: «لا فرق بالنسبة إليك، أياً تكن المرأة. أليس هذا ما تعنيه؟».

شعر بالغضب وبالكبرياء: «لو أن المسألة كذلك، لكنت أمضيت حياتي كلها مع النساء».

تسارعت خفقات قلبها واهتزت لقوله هذا: «هذه مباهاة متغطرسة يا لويس».

- إنها ليست مباهاة بل هي الحقيقة بكل بساطة، يا عزيزتي.

لكنه رأى شحوب وجهها فلانت قسماته. كانت متعبة منهكة وحزينة للغاية، فقال بهدوء: «هيا، فلنشرب حساءنا بسلام، وندع الحديث في هذا الموضوع».

هزت صوفي رأسها. أرادت أن تعرف شيئاً عن حياة ابنة خالتها هنا، فقد بدت الصورة غير واضحة بالنسبة إليها. كانت اتصالات ميراندا بها غريبة نوعاً ما. فهي لم تكن تكلمها إلا عندما تكون وسط الأزمات الكثيرة، التي يبدو وكأنها تتعقبها طوال حياتها.

- أريد أن أعلم. أريد أن أسمع تفسيرك لما حدث.

كانت تتكلم وكأنه يخضع للمحاكمة، كما أخذ يفكر بمرارة. لأجل ابنه واسم دي لاكامارا، يجب أن لا يحاكم ويثبت جرمه: «حسناً جداً. أنا لا أنكر أن الغرور تملكني لاهتمامها بي. عندما تفصح امرأة رائعة الجمال عن رغبتها في رجل ما، ما الذي لا يفعله الرجل؟».

- لكنني أظنك نويت على علاقة عابرة؟

فنظر إليها دون أن يفهم: «علاقة عابرة؟ وأي بهجة يمكن أن تنتج عن علاقة خاطفة كهذه؟».

سمعت الحيوية والنشاط في صوته ورأت العاطفة المشبوبة على ملامحه الوسيمة المتكبرة، فأدركت أن ميراندا في ملاحقتها للويس قد طارت حتى قاربت الشمس، ثم دفعت الثمن. أن تعرف رجلاً كهذا بشكل حميم، ثم تلد له ابناً لا بد رفعها إلى قمة تسبب الدوار حيث لا يبقى أمامها سوى الانحدار. أدركت صوفي بثقة عمياء، لم تستطع تفسيرها، أن لويس يملك شخصية مراوغة. فهو لا يمنح المرأة سوى جزء من نفسه. جسده، نعم، لكن قلبه؟ وتساءلت إن كان لرجل كهذا قلب في الحقيقة. وإذا ما كان يملك قلباً، فهو كما قالت ميراندا مرة، مصنوع من الثلج وليس من لحم ودم.

- إذن فقد كنت تقدم إليها مستقبلاً، أليس كذلك؟

فهز كتفيه: «ليس للعلاقات شكل معيّن. أنا أسميها علاقة معترف بها».

- يا لها من كلمة باردة تطلقها على ذلك!

- لا أعني ذلك. كانت علاقتنا بهيجة للغاية، حينذاك على الأقل.

- لكن الطفل غيّر ذلك، كما أظن؟

مرّ صمت قصير متوتر قال بعده بجمود: «نعم، صوفي. الطفل غيّر

كل شيء».

ـ ولكن... ولكن... إذا لم يحصل ذلك، هل كنت ستتزوجها؟».

قابل نظراتها بثبات، متسائلاً عما جعله يتحدث إلى هذه المرأة بتلك الصراحة. كان يدرك أن سرد المزيد من الحقائق سيؤلمها، فما الغاية من ذلك؟

قال برقة: «أظن أن هذا الحديث طال بما يكفي، أليس كذلك؟».

فقالت متوسلة: «أخبرني».

ـ أظنك في أعماقك، تعرفين جواب هذا، أليس كذلك يا صوفي؟

فقالت بصوت خافت: «إذن فأنت لم تحبها؟ أنت تزوجتها لكنك لم تحبها!».

ـ أنت تلقين سؤالاً مستحيلاً.

ـ ليس مستحيلاً... ربما صعباً لكنه ليس مستحيلاً.

ساد صمت عميق مشحون قبل أن يقول بهدوء: «لا أظنني أعرف ما هو الحب! أتعرفينه أنت؟ كل ما أعرفه هو أن ميراندا كانت حاملاً وكان من واجبي أن أتزوجها. ومن مسؤوليتي أيضاً».

ـ واجب؟... مسؤولية؟

ليست هذه كلمات رجل أحب وخسر من يحب. وبقلب متألم تقبّلت صوفي حقيقة أن الأرستقراطي الإسباني المتكبر لم يحب ابنة خالتها حقاً.

ـ وهل علمت هي بأن زواجك منها مجرد واجب؟ هل أخبرتها بذلك؟ بأنها أصبحت زوجتك فقط بسبب الظروف؟ ألهذا كانت تعيسة إلى ذلك الحد؟

فقال بحدة: «انتهى الموضوع، ولن أتحدث فيه أكثر من ذلك، والآن تناولي حساءك».

فتحت فمها لتعترض، لكن العينين السوداوين منعتاها من ذلك،

فأدركت أنها قالت ما يكفي وأكثر. ولماذا تغضبه؟ يكفي الإرباك والقلق. لكن تحويل ذلك الغضب إلى شجار سيكون هزيمة لها، بينما هي بحاجة إلى رؤية تيودور. ولأجل ذلك تريد لويس إلى جانبها...

ـ تناولي طعامك من فضلك.

عاد يقول لها ذلك وقد رقّ صوته على غير توقع. وإزاء هذه الرقة، خفّ شعور المحاربة في نفسها، فأقبلت على طعامها بنهم لم تكن تتصوره. كانت «الغازباتشو» لذيذة وكذلك العجة الممزوجة بالأعشاب الحلوة التي جاءت بعدها، ثم الحلوى مع القشدة التي لم تترك منها شيئاً. وعندما انتهت ورفعت بصرها رأته يراقبها متأملاً، فقال برزانة: «كنت جائعة جداً».

ـ نعم.

وحاولت أن تتذكر آخر مرة أكلت فيها وجبة كاملة. كان ذلك قبل اتصاله الهاتفي، أي منذ يومين: «حسناً، لم يكن لدي شهية مؤخراً».

وضع فوطته على المائدة: «لا، طبعاً. تعالي صوفي، يجب أن تنامي الآن».

فهزت رأسها: «ليس الآن».

ووقفت مترنحة فرأت التساؤل في عينيه. فأرغمت نفسها على أن تقول: «أرجوك لويس، أحب أن أرى تيودور الآن».

كان يفضل أن تنتظر حتى الصباح فهي تبدو بالغة الشحوب والإنهاك في هذا الوقت من الليل... حتى أنه يخشى أن تقع بين ذراعيه في أية لحظة. حاول أن يكبح فكرة مبلغ البهجة التي سيجدها حينذاك. لكنه رأى التصميم الذي بدا في ذقنها المرفوعة فتنهد بخفة: «حسناً جداً، تعالي معي».

تبعته وهي تتنهد بارتياح، شاعرة بالذنب والاضطراب لعدم تمكنها

من تحويل نظراتها عن حركاته. ما كان لهذا الشعور أن يتملكها، الآن وهي معه... وخصوصاً في وقت كهذا. آن لرغبتها فيه أن تغادرها منذ زمن طويل تاركة مكانها شعوراً بالكراهية، فإلى أي جهنم ذهب هذا الشعور الآن؟

اجتازا متاهة من الممرات ثم وقف أمام باب والتفت إليها: «عليك الآن أن تكوني هادئة جداً. لقد أصبح نومه قلقاً مؤخراً، وعلينا ألا نوقظه مهما كان الأمر».

فردّت عليه همساً: «لا عجب من أن يصبح نومه قلقاً، فالأطفال يشعرون بالفطرة... ولا بد أنه يفتقد أمه كالمجنون».

بدا وكأنه يريد أن يقول شيئاً، إلا أنه عاد فغيّر رأيه ووضع إصبعاً على فمه: «هششش!... لا مزيد من الكلام. تعالي».

دخلا الغرفة بصمت كشخصين يمثلان شخصية «سانتا كلوز»، وعندما وقفا بجانب سرير طفل واسع قديم الطراز، أخذ قلب صوفي يخفق.

لم تكن صوفي رأت تيودور منذ تعميده، عندما كان عمره عدة أسابيع. ومع أن عدة صور له وصلتها من ميراندا، وآخر صورة أخذت في عيد ميلاده الأول، ولكن لا شيء أعدها للصدمة العاطفية الناتجة عن رؤيتها طفل ميراندا مستلقياً هنا، غافلاً عن العالم كله.

كان فمه الوردي مضموماً باستياء، وأهدابه الملائكية الكثيفة السوداء منسدلة على وجنتيه. وبدت خصلات شعره فاحمة السواد على الوسادة، وخيل إلى صوفي أنها ترى آثار دموع جافة على خديه.

دمعت عيناها وهي ترى براءته وضعفه. وفكرت أنه سيستيقظ في الصباح ويشعر بالتعاسة لأجل أمه، من دون أن يفهم سبب غيابها. مسكين تيودور الحبيب!

مدت يدها بالغريزة لتبعد خصلة من شعره، لكن قبضة من حديد أمسكت بيدها هذه قبل أن تصل إليه.

ـ لا.

همس بذلك بصوت ناعم مهدد. وقبل أن تستطيع صوفي منعه، كان قد أخرجها من الغرفة وأغلق الباب خلفهما.

بقي ممسكاً بمعصمها. كان تشعر بأصابعه القوية مغروزة في لحمها، كما استطاعت أن تشعر بالغضب يلمع في عينيه السوداوين. كان أقرب إليها من أن تتجاهله... أقرب من أن تشعر بالارتياح، ومع ذلك ليس قريباً بما فيه الكفاية.

كل خلية في جسدها كانت تصرخ بأنه في مجال اللمس. وفي لحظة هوس وجنون أرادت صوفي أن تلمسه قبل كل شيء. تماماً كما فكرت في المرة الأولى التي وقعت عيناها عليه فيها. أن تلقي بنفسها بين هاتين الذراعين القويتين، وتريح رأسها المنهك على كتفيه العريضتين وأن تشعر بقوة جسده.

قال لويس بغضب: «حذرتك بألّا توقظيه، يا آنسة. أتريدين أن يبدأ بالبكاء بقية الليل ولا يقبل التعزية؟».

فقالت وهي تنزع معصمها من قبضته: «لم أكن أفكر».

شعرت بنبضها يخفق بقوة تحت أصابعه القوية، وتساءلت عما إذا كان هو أيضاً شعر بذلك. ثم تساءلت عما إذا كان قد تكهّن بأن سبب ذلك ليس الخوف أو الغضب.

ـ لا.

قال هذا عابساً، وإذا بفمها المرتجف وعينيها المظلمتين توقظان فيه مشاعر مفاجئة ما زاد من حدة غضبه: «أنت لم تفكري. حسناً، حاولي أن تفكري الآن. تيودور هو طفل وليس دمية... لا يمكنك أن تحمليه بدافع

من نزوة في منتصف الليل مهما كانت الظروف، وخصوصاً ظروف كهذه. حاولي أن تفكري فيه وفي ما يحتاجه هو وليس أنت!».

أنهى كلامه بمرارة فحدقت إليه. لقد حاولت جهدها أن تخفي كرهها له ولكن يبدو أنه يفعل الشيء نفسه.

تراجعت خطوة إلى الوراء وقالت بهدوء: «تصبح على خير، لويس، أنا ذاهبة إلى سريري الآن».

***

٤ ـ لماذا أنتظرك؟

نظر لويس إلى الرأس الأشقر وهو يفكر... كانت صوفي ترتدي السواد، وتبدو صغيرة السن إلى حد سخيف: «صوفي».

رفعت إليه بصرها بتبلد: «ماذا؟».

ناولها فنجاناً صغيراً من القهوة، وأمرتها عيناه السوداوان برقة: «هاك. إشربي هذا».

أومأت كأنها مخدّرة ثم أخذت منه الفنجان. فقد أمضت معظم النهار وهي تسير خلف جنازة مزينة بالزهور، فشعرت كأنها تتحرك كآلة جامدة.

أخذ ينظر إليها وهي ترشف القهوة من خلال شفتين متجمدتين. بدت له ضئيلة الجسم كدمية، وهي مكوّمة في إحدى تلك الكراسي الكبيرة الحجم التي أجلسها عليها برفق. وكانت عيناها الزرقاوين الكبيرتين تحتلان وجهها الناصع البياض.

تأوه لويس بصوت منخفض، كأنه يزيل ما يشعر به، شاعراً بالارتياح لأن هذا النهار شارف على نهايته. كانت الجنازة مزينة وقوراً في الوقت نفسه، وثمة أربعة كهنة يقومون بالطقوس الكنسية تبعاً لمركز لويس، وليس لأن ميراندا كانت مدينة بشكل خاص.

سألها برقة: «هل تشعرين بتحسن الآن؟».

ـ نعم.

وكانت مسرورة لانتهاء كل شيء الآن. ها قد انقلبت صفحة أخرى

www.elromancia.com

تاركة المحنة خلفها. لقد مرّ بها النهار بسلام بشكل ما خلال تشييع الجنازة وصلت مجموعة من المشيعين، براقي الأعين، أنيقي اللباس، عددهم حوالي العشرين أو الثلاثين. أبلغها لويس عابساً، أنهم «شلة» ميراندا في الملاهي. لكن أكثر المحتشدين في الكنيسة كانوا من أسرة وأصدقاء لويس... وقد جاء والداه بالطائرة من مدريد لحضور الجنازة، ثم أعادتهما سيارة للتوّ إلى المطار.

حدّقت إليها والدة لويس بفضول، لكنها عانقتها، ما جعل صوفي تشعر نحوها بالشكر. كانت ميراندا قد أخبرتها أن علاقتها بوالدة لويس ليست علاقة طيبة... فقد قالت في إحدى المرات إنها كانت تفضل لو تزوج ابنها من إسبانية صغيرة ظريفة.

لكن حزن والدة لويس بدا لها صادقاً وقد تقبلت صوفي تعزيتها وهي تترنح.

نظرت في أنحاء الغرفة. كان الجميع قد ذهبوا، ولم يبق سواهما في غرفة الجلوس المزخرفة والوقور في الوقت نفسه. بدا لويس في ملابسه السوداء رسمياً إلى حد بالغ... بدا رجلاً غريباً أسود الشعر وفي ملابس سوداء... لم تكن تفصلهما عن بعضهما البعض سوى بضع خطوات ومع ذلك فقد بدا بعيداً عنها مليون ميل.

سألته: «أين تيودور؟».

ـ سلفادورا تحمّمه.

ـ أليس الوقت مبكراً لذلك؟

فأجاب متهكماً: «أظنني أدرى بمصلحة ابني، أليس كذلك؟».

عضت شفتها بإحباط. لم تكد ترى الطفل منذ سحبها أبوه الغاضب من غرفته ليلة أمس، ظناً منه أنها تحاول أن توقظه عمداً. واليوم أحضروه إلى الكنيسة في سيارة خاصة مع سلفادورا، وقد تعلق بعنقها طوال

الوقت.

قابلت صوفي نظرة لويس اللامبالية بتمرّد مفاجىء: «لويس، هل تحاول أن تبقيني بعيدة عن ابن ابنة خالتي؟».

رفع حاجبيه وكأنها قالت شيئاً غير مفهوم: «ولماذا أفعل شيئاً كهذا؟».

ـ أظن هذا واضحاً. ألا تريدني أن أعرفه؟ أو لعلك لا تريده أن يعرفني؟

فقال بحرارة: «يا إلهي... الطفل يشعر بالتشتت والضياع...».

ـ حسناً، طبعاً هو كذلك. فقد فقد أمه لتوّه.

فتح فمه ليجيب ثم غيّر رأيه ونظرت إليه بإحباط: «أليس لديك جواب لذلك؟ ألا يمكنك أن تتصوّر أهمية هذا الأمر بالنسبة إلى طفل؟ منذ لحظة كانت أمه هنا... وإذا بها في اللحظة التالية...».

وتلاشى صوتها وتأوهت. إنها تصعّب الأمر بالنسبة إليه.

ورفعت بصرها إليه وقد تألقت عيناها: «حسناً؟».

فقال بصوت ثقيل: «صوفي. الأمر ليس كما تتصورينه. كان يمكن أن يكون أسوأ».

ـ وكيف؟

اختار كلماته بعناية، كأنه يقتلع أشواكاً غرزت في لحمه: «لم تكن ميراندا من نوع الأمهات اللواتي يمضين مع الطفل كل ساعة من يقظته».

سمعت في صوته إشارة إلى شيء غير معروف: «أتريد أن تخبرني بأنها أم سيئة؟».

ـ أنا أقول إنها لم تكن... بقربه... أغلب الأوقات. كانت تترك أكثر العناية بالطفل إلى سلفادورا... ولا بد أنك رأيت البرهان على ذلك اليوم. أي شخص يمكنه أن يرى أن تيودور متعلق بها كلياً.

لم تشأ أن تصدقه، مع أن لهجته بدت صادقة. وعضت شفتها وهي تتذكر حديث ميراندا عن حياتها بعد أن أصبحت أماً. ألم تقل إن الأمومة ليست تماماً بالجمال الذي يصفونها به؟ ألم تقل لصوفي إنها لن تقدّر قيمة الحرية إلا بعد أن تفقدها؟

قطبت صوفي جبينها. هل كانت ميراندا تهمل ابنها بغيابها عنه؟ هل أجبرتها تصرفات لويس على الابتعاد عنه؟ ربما لم تتمكن من احتمال اهتمامه بالنساء الأخريات؟ وتأملت وجهه الجامد. حتى لو كانت تلك هي القضية، هل هناك فائدة من أن تدع ذلك يعيقها عن هدفها الحقيقي من وجودها هنا؟ وماذا يفيد تيودور أن تلوم هي أباه وتعنّفه؟

كان لويس يراقب التعبير الساخط الذي بان في زمّها لشفتيها، وتنهد. «ماذا تريدين صوفي؟ أخبريني بصراحة وأنا سأهتم برغباتك».

لكن الذعر تملكها وشعرت بقشعريرة باردة. فكلماته الخافتة قد تحمل تفسيراً آخر. أتراها مجرد خدعة من الطبيعة تجعلها تشعر به كرجل يهتم بها؟ تساءلت بيأس صامت. هل الموت وحده هو الذي يظهر قوة الحياة؟

ابتلعت ريقها مركزة على الوقائع وليس على رغباتها، ثم قالت ببطء: «سأخبرك بما أريد يا لويس. أريد أن أمضي بعض الوقت مع ابن ميراندا لكي يعرفني ويحبني...».

فكرر غير مصدق: «أن يحبك؟».

- وهل هذه جريمة؟

- لا، ليست جريمة. ولكن هل تظنين حقاً أن هذه الأشياء يمكن أن تحدث بين ليلة وضحاها؟

- طبعاً لا أظن ذلك. لكنها أيضاً لا تحدث إذا أنا بقيت بعيدة عنه. كنت أحب أن أراه وهو يأخذ حمامه...

فقال بهدوء. «ظننتك متعبة، وأكثر حزناً اليوم من أن تهتمي بنظام تيودور اليومي».

- مثلك، كما أظن.

- أنا لست مدّعياً صوفي، أنا أتألم لحياة فتية ضاعت سدى، لكني لن أذرف الدموع على الوسادة الليلة.

- أليس لديك؟... أليس لديك قلب؟

ضاقت عيناه مفكراً: «من يدري؟ البعض يقول لا. هذا ما كانت النساء تقوله أثناء فترة شبابي. لكنني سأخبرك بأمر يا صوفي: عندما يتعلق الأمر بابني، من المؤكد أن لدي قلباً وتصميماً بالغاً بألّا أدع شخصاً أو شيئاً يؤذيه على الإطلاق. هل أنا واضح؟».

واضح كالبلور! وكذلك نبرة التهديد في ذلك الصوت العميق الغني. قوة شخصيته هذه قد ترهب أي امرأة أخرى بسهولة لكن صوفي لديها قضية تناضل من أجلها. أو بالأحرى، شخص.

اقتناعها أنها تناضل لأجل تيودور منحها القوة لكي تبادله نظرة التحدي.

- ليس لدي النية في إيذاء تيودور على الإطلاق، لويس.

- ولا رغبة لديك في وصف أبيه بأنه شيطان أسود القلب؟

قابلت الشموخ والكبرياء في نظرته من دون أن تجفل: «حتى ولو كان هذا رأيي... لا يمكن أبداً أن أحاول التأثير على مشاعر طفل صغير. ربما أنت لا تشعر نحوي بأية مودة، لويس... لكن علاقتنا ليست هي الشيء الهام هنا، وإنما علاقتي بتيودور».

فقال بهدوء: «ولكن لا علاقة حقيقية لك بتيودور».

- صحيح، لا علاقة حقيقية لي به. وربما ما كنت سأراه سوى في مناسبات عائلية عَرَضية. لكن الأمور تغيرت. ما حدث من قبل ليس له

صلة بالموضوع الآن. ميراندا ماتت وأنا أريد أن تسنح لابنها فرصة يتعرف فيها إلى الشق الثاني من أسرته. أن يعلم شيئاً عن جذوره الإنكليزية، بدءاً من الآن.

فقال وقد ضاقت عيناه: «الآن؟».

فأومأت وهي تقف وتسوّي تنورتها: «وفي هذه اللحظة، بعد أن ينهي تيودور حمامه، أريد أن أقرأ له حكاية قبل النوم. لا أظن أن لديك اعتراضاً على ذلك، لويس؟».

تسلل شعاع من الشمس من بين مصراعي النافذة فأحال شعرها إلى خيوط ذهبية. ومع بشرتها الناصعة البياض المناقضة تماماً للون ثوبها الأسود بدت له غاية في النقاء، ما جعل النبض في صدغه يتسارع.

فأجاب بصوت أجش: «طبعاً لا اعتراض لدي، لكنك لن تعترضي إذا كنت أنا أيضاً موجوداً».

- أتخاف أن أخطفه وأهرب به؟

قاوم دافعاً يدفعه إلى أن يجيبها بشكل منطقي، فهي لا تملك جواز سفر لابنه. لكن المبدأ هنا كان أهم من المنطق العملي؛ على صوفي ميلز أن تعرف تماماً حقيقة وضعها ووضعه. فقال بصوت ناعم مبطن بالتهديد: «حاولي القيام بشيء كهذا يا صوفي. أتعلمين ما معنى أن أغضب؟ أنا «دي لاكامارا» ولا شيء يمكن أن يؤخذ مني عنوة، هل فهمت؟».

كانت ملامحه الصلبة قد توترت بمشاعر مظلمة بدائية لا أثر فيها للحضارة، ما جعله يبدو كعدوٍ لا يرغب معظم الناس في مواجهته. وتملك صوفي اليأس للحظة... لماذا اختارت ابنة خالتها أن تقرن نفسها برجل كهذا؟ لماذا لم تستقرّ وتسعد مع أحد أولئك الرجال الذين كانوا يعشقونها حتى العبادة؟

هل لأن الفوز به كان صعباً، وهذا وحده يكفي؟ ألم تكن ميراندا دوماً

تلاحق من يهرب منها؟

وتألقت العينان السوداوان: «هل فهمت؟».

وفجأة، اكتسحتها موجة من الإرتياح بردت شيئاً من التوتر الذي أصابها. لقد انتهى أسوأ جزء من هذا النهار... وهي ستقرأ للطفل قصة: «آه، لأجل الله يا لويس، لا تبالغ في مشاعرك هذه! سأذهب لأحضر كتاب قصص من غرفتي».

ولأول مرة هذا النهار، ابتسم: «حسناً جداً. وأنا سأحضر تيودور إلى هنا لينتظرك».

وفي غرفتها غيرت ملابسها مستبدلة بثوبها الأسود بنطلوناً وبلوزة قديمين. فالأطفال هم الأطفال حتى ولو كانوا قد اغتسلوا حديثاً. وهكذا لم يعد ثمة ما يقلقها إذا ما تقيأ على ثيابها أو سال لعابه. هي بحاجة لأن تكون مرتاحة الأعصاب معه بقدر ما هي متلهفة إلى احتضانه.

تناولت أحد الكتب التي كانت قد أحضرتها معها وطرداً ملفوفاً بورق متألق الألوان، ثم أغلقت باب غرفتها خلفها وعادت تهبط السلم إلى غرفة الجلوس. لكنها عندما وصلت إلى الباب المفتوح وقفت جامدة تستوعب المشهد الذي بدا أمامها. كان لويس ممدداً على السجادة يلعب مع ابنه. ولا بد أنه كان قد خلع سترته وربطة عنقه، وفتح أزرار قميصه العليا لأن صدره الأسمر بدا مكشوفاً.

لم ير صوفي وهي تدخل لأن اهتمامه كان مركزاً على ابنه الممتلىء الجسم والذي كان يملأ الجوّ ضحكاً وهو يصرخ: بابا!... بابا! وكان لويس يضحك هو أيضاً، ملقياً برأسه المغطى بالشعر الأسود إلى الخلف، منطلقاً على سجيته في البهجة.

تنفست صوفي بعمق غير مصدقة، وهي تراه يلوي قسمات وجهه بشكل مضحك حتى ليكاد يصبح غير مميّز. هل هذا حقاً لويس دي

لاكامارا؟ وتملكها الذهول.

كانت عيناه السوداوان قد رقّتا والتوى فمه بابتسامة عطف وتسامح، فيما القبضة الصغيرة السمينة تتشبث بكتفه. عاد يضحك وهو يلقي برأسه إلى الخلف بينما الأصابع الصغيرة تخدش ذقنه. رنين ضحكه هذا جعل شيئاً داخل صوفي يثب إلى الحياة بشكل غير مرغوب فيه.

لم تشك يوماً بجاذبيته تلك، والتي كانت واضحة لكل امرأة على وجه الأرض. لكن لويس هذا، الرقيق الحنون، فاجأها تماماً.

لم تره قط بهذا الشكل، من قبل، أو بهذه الجلسة المسترخية البهيجة. كان يبدو... كان يبدو صبيانياً تقريباً، عندما أخذ يتمتم شيئاً في أذن تيودور.

حاولت أن تقنع نفسها بأن الغريزة فقط هي التي جعلت قلبها يبدأ بالذوبان، تماماً كالغريزة التي تجعلك توجه ضربة إلى الذبابة التي تئز قريباً من وجهك. والغريزة ليست عقلانية وإنما هي قاسية عشوائية.

هزت رأسها وكأنها تنكر أن يكون في شعورها ذاك شيء غير الجاذبية الجسدية... لأن التحكّم في ذلك كان سهلاً تماماً. بينما من الخطورة البالغة أن تبدأ في النظر إلى لويس بعطف ناسبة إليه صفات غير موجودة فيه. إنه شغوف بابنه وهذا كل شيء... هذا كل شيء.

عند ذلك رفع لويس بصره إليها، وإذا بملامحه تتغير وكأنما بسحر ساحر، وكأن غطاءً امتد عليها فجأة فجمدت، أما هو فقد فَقَدَ وجهه بعض حيويته ونشاطه.

وربما أحس تيودور بما أصاب أباه فأدار رأسه المغطى بالشعر الأسود فجأة، ليحدق في صوفي بعينين واسعتين متسائلتين. البراءة والاضطراب اللذان قرأتهما في عينيه أحدثا غصة في حلقها، فسارت نحوه. ارتجفت يدها التي تحمل الكتاب والهدية تأثراً برؤيته مرة أخرى. إن تيودور جزء

منها، جزء من لحمها ودمها هي أيضاً، مثل لويس.

ركعت بجانبه على الأرض، وسرورها لرؤيته أعماها عن رؤية ساقي لويس الممتدتين على بعد إنشات منها.

قالت برقة وبصوت متهدج متأثر: «هالو، حبيبي تيودور».

تابع الطفل تحديقه فيها والرزانة بادية في وجهه الصغير فقال لويس برقة بالإسبانية: «تيودور... هذه صوفي ابنة خالتك. أنت قابلتها مرة وأنت صغير جداً».

فقالت مرة أخرى: «هالو، حبيبي».

لكن الشعور بالحقارة تملكها وهي ترى شفتيه ترتجفان والدموع تسيل من بين أهدابه السوداء الكثيفة، قبل أن يدسّ وجهه في كتف أبيه بشهقة مكتومة باكية وهو يهز كتفيه.

وهمست بعجز: «أواه، تيودور، لا تبك».

جلس لويس، وأخذ يهز ابنه بين ذراعيه وهو يتمتم له بالإسبانية بأرق وأنعم طريقة يمكن أن تصدر عن رجل. أما هي فجعلته يبكي.

نظر لويس إلى وجهها المصدوم وتملكه شعور بالعطف على كره منه. كان الطفل قد هدأ بين ذراعيه، فقال لها بهدوء: «لا تلومي نفسك يا عزيزتي. فهذا وقت صعب بالنسبة إليه».

قابلت نظراته فرأت فيها تفهماً خطف أنفاسها: «نعم».

ـ أنظري. لم يعد يبكي.

قال هذا وهو يعبث بشعر ابنه الأسود. أومأت صوفي وهي تتساءل عما إذا كان الطفل سيعانقها ذات يوم كما يعانق أباه. ولم يبد لها ذلك محتملاً.

أمسك لويس بالكتاب ثم قال شيئاً بالإسبانية لابنه، فأومأ برأسه على كتفه ثم التفت ببطء.

فسأله أبوه: «هل نقرأ الكتاب معاً، نحن وصوفي؟ تعالي. تعالي يا صوفي».

أشار إلى إحدى الأريكتين. وتبعته هي وقد أحست بالخجل فجأة. انتظرها لويس حتى جلست، فجلس مادّاً ساقيه بينما ظل ابنه متعلقاً برقبته أشبه بقرد صغير.

ربضت صوفي على حافة الأريكة، وقد أنعمت خياشيمها رائحة هي مزيج من محلول بعد الحلاقة ورائحة رجولته الخاصة. ثم فتحت الكتاب.

مال لويس نحوها لينظر إليها، فأصبح محلول بعد الحلاقة أشد تأثيراً. وسألها: «ما هي القصة؟».

- إنها أغاني أطفال.

كانت قد اختارت الكتب التي أحضرتها بعناية فائقة، مترويّة، خائفة من أن تجلب الأغاني ذكريات مؤلمة عن ميراندا.

- أرجو أنك تحب أغاني الأطفال يا تيودور!

فترجم لويس لابنه قولها فمال هذا إلى الأمام. وجذبت نظراته صورة براقة رائعة الجمال لشجرة جوز فضية وإجاصة ذهبية.

سألته صوفي: «هل تعرف ما هذه؟».

فقال لويس: «إنه يعرف قصصاً إسبانية فقط».

ولكن من المؤكد أن ميراندا كانت تقرأ لابنها قصصاً إنكليزية: «حسناً، هذه قصة إنكليزية تتحدث عن إسبانيا. وهكذا تبدو رائعة! والآن إسمع، تيودور: كان عندي شجرة جوز لا تحمل ثماراً...».

بدأت تنشد الأغنية ببطء وتنغيم، وأخذ تيودور يصغي وقد بدت عليه البهجة. وعندما وصلت إلى الفقرة التي تقول: «ابنة ملك إسبانيا جاءت لتزورني وكل ذلك لأجل شجرة الجوز الصغيرة التي عندي!» ضحك

لويس، ووجدت صوفي نفسها تضحك معه.

أذاب الضحك الجليد بينهما، ثم تلاشى كلياً عندما قرأت صوفي حوالى عشر أغنيات ثم شعرت بلمسة خفيفة على ذراعها، وعندما التفتت رأت عينيّ لويس مسمّرتين عليها وقد بدا فيهما الأسف: «تأخر الوقت يا عزيزتي. أنظري إنه يشعر بالنعاس».

رأت الصبي يفرك عينيه بقبضته ثم يتثاءب، وهو يجاهد لكي يسمع المزيد من الأغاني فأغلقت الكتاب وهمست: «سأقرأ لك المزيد من الأغاني غداً يا تيودور. هل تحب ذلك؟».

ترجم له لويس ما قالته إلى الإسبانية، فكوفئت بإيماءة صغيرة للغاية جعلت خصلات شعره تتراقص، ثم ما لبث أن وضع إبهامه في فمه، ثم عاد يريح رأسه على كتف أبيه.

نظرت إلى لويس وهو يقف، ثم أزاحت خصلة من شعرها عن وجهها: «أيمكنني... أيمكنني أن أساعدك في وضعه في السرير؟».

جمد مكانه وقد أسرته منها هذه الحركة فكادت تفقده توازنه، الطريقة التي أعادت بها شعرها إلى الخلف جذبت انتباهه إلى صدرها تحت قميصها المقفل الحائل اللون. ضاقت عيناه وشعر بخفقة في صدره، وبموجة ساخنة تكتسحه. لعنها بصمت رغم أن هذا الإغراء صدر عنها من دون وعي ولم يكن متعمداً.

وقال بفتور: «لا. ليس الليلة».

رفعت حاجبيها متسائلة، فعاد يشير بشفتيه بغطرسة بكلمة (لا)، من فوق رأس ابنه.

ألقت صوفي عليه نظرة متمردة. لم تشأ إثارة جلبة أمام تيودور، مع أن الأمر لم يعجبها مطلقاً. كيف يجرؤ على أن يتراوح تصرفه نحوها بين السخونة والبرودة، فيتصرف وكأنها طلبت منه أمراً فاحشاً؟ فكل ما طلبته

هو أن تساعده في وضع ابنه في السرير، وذلك بعد جلسة قراءة ودية للغاية. لكنها منحت تيودور ابتسامة رقيقة وقالت بلطف: «تصبح على خير».

ثم كررتها بالإسبانية وسرعان ما كافأها الطفل بالتواء سريع من فمه، أنبأها بالضبط كيف كانت شفتا لويس عندما كان في مثل سنه.

صعد لويس بابنه السلم وهو يزفر، منتظراً أن تنزاح هذه المشاعر التي تملكته، وتمتم في سره: تباً لها.

راح جسده ينبض بالمشاعر وحواسه تحترق، ما جعله يشعر بالضعف. ماذا فعلت به، وكيف؟ ولماذا يزيد الزمن من شوقه إليها بدلاً من أن يخمده كما يحصل معه عادة؟

في غرفة تيودور أخذ يراقبه منتظراً وهو يمرر على شعره بيده إلى أن نام الطفل. عند ذلك فقط تنفس لويس بعمق ووقف ينظر إلى ابنه، وهو يفكر بحزن ومرارة، كم هو مسكين وبريء! أمه دُفنت اليوم، وكل ما بإمكان أبيه أن يفكر فيه مشاعره الجسدية الملحّة.

* * *

جلست صوفي قبالته إلى العشاء وهي في مزاج من يعاني من الصداع. في البداية، لم تنطق سوى بكلمات معدودات. كما بدت فاقدة الشهية.

قطب لويس حاجبيه: «أليس الدجاج لذيذاً؟».

- إنه لذيذ جداً.

- لماذا لم تأكلي منه جيداً إذن؟

لكن جوابها قوطع برنين الهاتف، وبعد ذلك بلحظة دخلت سلفادورا: «دون لويس؟».

- ماذا؟

فقالت بسرعة: «إنها أليخاندرا».

أومأ لويس ثم نهض واقفاً، وتمكنت صوفي من رؤية النظرة العابسة في عينيه

- هل تسمحين لي؟

- بالطبع.

حاولت أن تصغي إلى حديثه، تماماً كما أصغى إلى حديثها مع ليام. لكنها لم تستطع أن تفهم كلمة من الإسبانية السريعة التي كان يتكلم بها. أياً كانت أليخاندرا هذه، فهو على علاقة حميمة معها بكل تأكيد، فقد بدا ذلك من طريقة حديثه معها.

ولكن عندما عاد إلى الغرفة، خيّل إلى صوفي أنه يبدو متوتراً. فقد بدا وجهه الوسيم متوتراً مظلماً، كما أنه راح ينظر إلى ساعته بين الحين والآخر.

وأخيراً، وضعت فنجان قهوتها على المائدة بشدة: «هل أنا أعطلك عن شيء، لويس؟».

فقال: «تبدين متعبة قليلاً».

- نعم، وكذلك أنت.

فقال محاولاً ألا يطيل النظر إلى عنقها العاجي الطويل: «هل لي أن أقترح أن تنسحبي إلى غرفتك في أول فرصة؟ كان النهار شاقاً».

- وأنت؟ هل تنوي النوم باكراً؟

تصلبت شفتاه وأخذ النبض يخفق في صدغه. هل تصورت أن وجودها هنا كضيفة يمنحها الحق في أن تحاسبه على تصرفاته؟

فقال بنعومة: «عليّ أن أخرج، إذا لم يكن لديك مانع».

تساءلت صوفي عما سيفعل إذا أجابت بأن لديها مانعاً فعلاً. هل يلغي ما جعله يبدو بهذا الشرود؟ ومع ذلك، ربما من الأفضل أن يخرج.

يمكنها أن تتصل بليام وتتفحص بريدها الإلكتروني، وتهتم ببعض

شؤونها الخاصة. وهكذا ستشغل نفسها عن تذكر أحداث هذا اليوم الهائل، وتبقي أفكارها بعيدة عن هذا السيد الأسود العينين الذي نهض واقفاً الآن.

وقف لويس ينظر إليها ويداه في جيبي بنطلونه. لم تستطع صوفي إبعاد نظراتها عنه. شعرت بحلقها يجف، فأرغمت نفسها على الانتباه بينما راحت أصابعها تطوي فوطة المائدة. نعم... من الأفضل أن يخرج ويبتعد عنها إلى أقصى ما يمكنه. فقالت بصوت مبحوح: «طبعاً ليس لدي مانع».

ألقى نظرة أخيرة عليها. بدت جميلة للغاية. جعلت أضواء الشموع لون شعرها بلون العسل السائل البرّاق وهو ينسدل كأجنحة الملائكة على جانبي وجهها. هل تدرك أنها أحياناً وهي تتحدث إليه، تلعق شفتيها بلسانها فتتألقان بإغراء كما لو أنهما مطليتان بأثمن أنواع أحمر الشفاه؟

هل جاءت إلى بيته لتعنيفه بسبب أمور ما كان يملك قدرة لتغييرها؟ ألم تدرك أن كراهيتها الواضحة له ليس لها أي تأثير عليه على الإطلاق، كما لا تؤثر بشيء على التوتر الذي يبدو دوماً في الجوّ بينهما؟ وقال: «تصبحين على خير، سنيورينا».

جعلت خشونة صوته هذا التهذيب الرسمي دون معنى: «سأقابلك في الصباح فلا تنتظريني، رجاءً».

رفعت إليه نظرها وقالت ببرودة: «وما الذي يجعلني أنتظرك، لويس؟».

***

٥ - . . . والحياة تستمر

بعد مغادرة لويس، بدت الغرفة والبيت خاليين بشكل غريب، ومع أن صوفي تعلم أن سلفادورا وبييرو ما زالا في المنزل، وتيودور نائم في الطابق الأعلى، فقد شعرت وكأن أشباح الماضي نهضت لتصبح هاجسها.

تخيلت ميراندا وهي تجلس هنا، تتناول الطعام اللذيذ في غرفة الطعام الرائعة الجمال. لكن الجنوح أكثر من ذلك في الخيال بدا لها صعباً. فالمنزل ممتاز لكنه منعزل. وكانت ميراندا دوماً تحب الاختلاط بالناس، وتفضل الحفلات على الانفراد. تساءلت صوفي إن كانت قريبتها قد أزعجت نفسها بالتفكير في طراز حياة لويس قبل أن تتزوجه.

شربت كوباً صغيراً من القهوة الثقيلة اللذيذة التي تركتها سلفادورا على المائدة، وعندما لم تستطع أن تكبح تثاؤبها، صعدت إلى غرفتها واستحمت قبل أن تلجأ إلى سريرها.

كان السرير واسعاً مريحاً، لكنها أمضت وقتاً طويلاً قبل أن تستغرق في النوم ولم تجد في نومها هذا ملجأ مريحاً، ذلك أن أحلامها لم تمنحها السلام. فطبيعة تلك الأحلام كانت مزعجة، بقدر هوية الرجل الذي أخذ يتسلل إليها بشكل متسلط خطر.

لويس!

بدا وسيماً، قوياً... وجهه الأسمر يسخر منها من بعيد، وعيناه السوداوان يجذبانها كعادتهما على الدوام. مدت يديها إليه لكن الجوّ كان

فارغاً، ورجاؤها فيه كان زائفاً كالسراب. تناوبت عليها البرودة والسخونة، ولمست جسدها فإذا به ينضح بالعرق. دفعت عنها الأغطية وأخذت تتقلب في الفراش شبه مستيقظة، تتأوه محتجة على ضربات قلبها السريعة، غير قادرة على تخليص نفسها من الصورة الجبارة لذلك الإسباني المتكبّر ذي الوجه الصلب والجسد الحار.

عاد وجهه يسبح أمامها، وهذه المرة... كان بإمكانها أن تصل إليه. وللحظة أمسكها بين ذراعيه وسحقها على صدره. لكنه عاد فهز رأسه نبذاً وازدراء، فدفعها إلى السرير ثم ابتعد عنها. وتأوهت من أعماقها قائلة بصوت ممزق: «لويس!».

في تلك اللحظة كان لويس يمرّ من أمام غرفتها على رؤوس أصابعه. سمع صرخة جفلى صادرة من غرفة صوفي فجمد مكانه.

وقف خارج الباب صامتاً، وما لبث أن سمع صوتاً آخر... لكنه بدا هذه المرة كالنواح. ثم سمع اسمه. كانت تصرخ باسمه! اسمه! يا إله السموات! التوى قلبه، وجعلته صرختها متشوّقاً بشكل لا يحتمل.

وبخفة بالغة، لوى قبضة الباب ثم دفعه. جمد مكانه إلى أن اعتادت عيناه الضوء. وهمس دون وعي: «رباه».

لا بد أنها فتحت مصراعي النافذة، لأن ضوء القمر كان ينساب عليها من خلال النافذة ساطعاً براقاً ما جعلها تبدو بلون الفضة. بل أشبه بمخلوقة خرافية لا يكسوها سوى قميص نوم خفيف باهت اللون.

أما شعرها فقد انتشر لامعاً فوق الوسادة، بينما امتدت ذراعها بتراخ إلى ما فوق رأسها. أخذ لويس ينظر إليها مبهوراً. تحركت صوفي متقلبة في السرير، فبدا انعكاس الضوء والظل على جسمها ساحراً أخّاذاً.

رآها تعود فتنقلب إلى الجانب الآخر، ثم تقطب جبينها. بدا واضحاً أن نومها متعب، وتساءل عن سبب كل ذلك الضيق والكرب البالغين

اللذين تعاني منهما.

يا إله السموات! هل كانت تحلم؟ أم هو الذي يحلم؟

تساءل عما إذا كان عليه أن يوقظها، ولكن هل يمكنه أن يثق بنفسه عند اقترابه منها بهذا الشكل؟ ماذا لو استيقظت فوجدته في غرفتها، مشرفاً على سريرها، ووجهه متوتر بسبب رؤيتها نائمة في فراشها...؟ ألن تصرخ حينذاك، فتقيم الأرض ولا تقعدها؟

تقدم نحو السرير من دون أن يهتم لحماقة تصرفه هذا، وأخذ يحدق فيها، فلاحظ قطرات العرق الضئيلة للغاية التي جعلت بشرتها تتألق وكأنها مضاءة من الداخل. ومرة أخرى شعر بحرارة مشاعره المؤلمة. وقفته هذه والنظر إليها جعلتاه يشعر بعذاب لا يطاق، فعض شفته مستعداً لمغادرة الغرفة.

وإذا بعيني صوفي تنفتحان على اتساعهما، وتريان ذلك الوجه الوسيم المتكبر، وقد بدت عيناه سوداوان أكثر مما تعهدهما، وهما تنظران إليها. حتى في ضوء القمر استطاعت صوفي أن ترى وهج الانفعال يلوّن وجنتيه.

ـ لويس!

همست بذلك غير مصدقة، وكأنما تحقق حلمها فجأة. فقال بصوت مرتجف: «سمعت صوتك».

لكنه أفضل أن يذكر ما كانت تقوله: «ظننتك.. ربما تعانين من كابوس».

انتصبت جالسة، وارتفعت يدها إلى عنقها: «ما... هو الوقت الآن؟».

ابتلع لويس ريقه: «الوقت متأخر... أو بالأحرى مبكر جداً. الساعة الآن الرابعة، وما زالت الطيور ساكنة في أعشاشها. عودي إلى نومك يا عزيزتي. نامي، نامي. أنت بحاجة إلى النوم».

لم نسمع صوفي صوته بهذه الرقة قط من قبل، ولا بهذه البهجة واستندت إلى الوسائد خلفها.

ـ نامي.

عاد يحثها، فجذبت ملاءة الفراش حتى ذقنها. استحسن لويس ذلك منها وكرهه في الوقت نفسه.

وقف ينظر إلى أهدابها تنسدل فوق عينيها بينما هي تتأوه المرة بعد الأخرى..

انتظر حتى هدأت أنفاسها، ثم، بألم كان قد غزا كل خلية من جسده، ابتعد بحزم عن السرير. أغلق الباب بهدوء كما فتحه. بعد أن اطمأن إلى تيودور ذهب إلى حمامه وأخذ دوشاً عنيفاً قوياً من الماء البارد. ثم استلقى في سريره وأخذ يراقب الفجر وهو يزحف من النافذة بعينين فارغتين.

استيقظت صوفي برأس مثقل وشعور غريب بالذهول لم يستطع الحمام الطويل أن يمحوه. أخيراً، نزلت إلى الطابق الأسفل. كان الإفطار جاهزاً على الشرفة المزينة بالأزهار والتي غمرتها أشعة الشمس، لكن مكان لويس لا زال فارغاً.

مسحت الخبز بالمربى، ثم نظرت، بخيبة أمل، إلى سلفادورا التي كانت تسكب لها القهوة: «هل تناول لويس فطوره؟».

فتردّدت المرأة: «لا، سنيوريتا. دون لويس لم ينزل من غرفته بعد».

أتراه تأخر في الخارج؟ وأخذت صوفي تحدق في صحنها من دون أن ترى، بينما عادت أجزاء من حلم مزعج إلى ذاكرتها.

وضعت سلفادورا أمامها طبقاً من الفاكهة الطازجة وسألتها: «ربما تريدين بعض البيض؟».

ـ لا، شكراً. الخبز وحده يكفي.

ولكن عندما ذهبت سلفادورا، لم تأكل صوفي سوى القليل من

وجبتها. أبعدت عنها صحنها، وجلست تجيل نظراتها في ما يحيط بها من جمال. هذا المكان هو، حقاً، من أجمل الأمكنة التي رأتها في حياتها. بدت السماء زرقاء فوق التصوّر، ومن بعيد كانت أشجار الليمون تبدو صفراء متدرجة الألوان ومثقلة بالثمار.

وقفت ثم سارت تتكىء على الدرابزين وتتفرج على البساتين المنظمة بشكل رائع. وأدركت أن هذا المكان هادىء ومسالم للغاية.

فكرت في عزلة المزرعة... في عزلة ميراندا بصفتها زوجة أجنبية بعيدة عن وطنها. اكتسحتها موجة من الحزن، وهي تدرك غلطة ابنة خالتها في القدوم إلى هنا.

ولكن لو أن ميراندا لم تفعل هذا، لما جاءت صوفي إلى هنا! وتنهدت. طبعاً ما كان هذا سيحدث، فهي لم تكن لتعرف هذا المكان إلا من خلال ميراندا. كما أن الحظ ما كان ليجمعها بلويس دي لاكامارا. عليها ألا تنسى ذلك أبداً. آه ميراندا...

همست بذلك بعجز، وأخذت دموع الشعور بالذنب تنساب من بين أهدابها. هل كانت ستصدم أو تدهش لو علمت أن صوفي كانت دوماً ترغب بزوجها خفية؟ أخذت صوفي تطلب الصفح من الله بصمت.

رآها لويس من داخل البيت، وعلم أنها تبكي حتى قبل أن يقترب منها إلى حدٍ كاد يرى معه لمعان الدموع على خديها الناصعتين.

أجفل، وكأنما هو الذي فجّر دموعها. ربما كان من الأفضل لها أن تبكي فهذه المرة الأولى التي يراها تذرف الدموع فيها.

اقترب منها برقة: «صوفي؟».

سمعت وقع قدميه لكنها لم تلتفت، بل أخذت تجفف عينيها بفوطة السفرة. لا تريده أن يراها بهذا الضعف والضياع، خائفة من أن تتكهن هاتان العينان الذكيتان بجزء من ذنبها الخفي.

- لماذا تبكين؟

سألها بعد أن أصبح من القرب منها بحيث أمكنه أن يلمس خصلة من شعرها الحريري

هزت رأسها وهي تبتلع اخر دموعها: «لا شيء أنا بخير الآن»

فقال بلطف: «لا، بل أخبريني عن سبب بكائك»

لطفه أذاب كل دفاعاتها: «كنت كنت فقط »

وارتجف صوتها: «أفكر في ميراندا متمنية لو أن الأمر كان »

- مختلفاً؟

وعندما أومأت، قال بلطف «آه صوفي صوفي»

كانت دموعها تنهمر على وجهها قال لويس يواسيها: «لا بأس»

ورفع يده بحركة آلية يمسّد بها على رأسها، وأنامله تتمهل على شعرها الحريري: «لا بأس».

حتى في منتصف العاصفة، ألهبت لمسته حواسها، حرارته، صلابته رائحته، قدرته على إثارة العواطف، وقدرته على الاستفزاز برجولته الفياضة. وقبل أن تهزمها مشاعرها، أخذت أجراس الإنذار تقرع في عقلها الباطن لقد حلمت به... قالت تتهمه: «أنت كنت في غرفتي في منتصف الليل!».

تمنى لو أنها لم تذكّره بذلك. ذلك أن ذاكرته ابتدأت تسبب له ألماً وضيقاً: «سمعتك تناديني فدخلت لأطمئن عليك».

تملكها ارتباك بالغ بعد أن تذكرت الحلم. وتساءلت عما عسى أن تكون قد نادت بدا لها من الأسهل والأقل إزعاجاً أن تركز على ما كان يفعله هو هناك، فقطبت جبينها: «كنت لا تزال في الخارج، أليس كذلك؟ كان الوقت متأخراً جداً».

- نعم، كنت ذاهباً إلى غرفتي عندما سمعتك

- خرجت لترى امرأة، تلك المرأة التي اتصلت بك هاتفياً أثناء العشاء، أليخاندرا؟

فقال موافقاً: «نعم، أليخاندرا. هذا صحيح».

شعرت أن لهجته تحمل نبرة مختلفة. أترى أحداث الأيام القليلة الماضية عمّقت قدرتها على الملاحظة؟ علمت بيقين بالغ أن علاقته بهذه المرأة أليخاندرا ليست علاقة صداقة بريئة.

سألته وعيناها تخترقان عينيه: «إنها صديقتك... منذ متى؟»

لم ينكر هذا.. وكيف يمكنه ذلك؟

لم يستطع أن يحوّل نظراته وساد صمت طويل ثقيل قبل أن يجيب كارهاً: «منذ ستة أشهر».

قال هذا بعد أن حدّث نفسه بأن ليس لديه ما يجعله يكذب عليها. ولكن رغم هذا دهش لردة فعلها.

اندفعت بعنف وشعرها الأشقر يتطاير شاهرة أظافرها قرب وجهه الأسمر الجامد لولا أنه أمسك بمعصميها بقوة، وهو يقول: «إغضبي مني واشتميني قدر ما يرضيك. ولكن لا تتركي آثاراً على وجهي».

- لمَ؟ ألن يعجب ذلك أليخاندرا؟

- كفى، صوفي.

- هل لك أن تترك يديّ من فضلك؟

- إذا وعدتني بأن تتوقفي عن محاولة خدشي.

- لن أخدشك.

تركها لويس وعندما عادت فشهرت أظافرها في وجهه، عاد يمسكها مرة أخرى: «آه، كنت تكذبين، إذن، أليس كذلك يا عزيزتي؟ لقد وعدتني ألا تخدشيني مرة أخرى».

حدقت إليه وقلبها يخفق بعنف وألم: «أنت... أنت أمضيت الليلة

الماضية . مباشرة بعد الجنازة بين ذراعي امرأة أخرى! كيف أمكنك أن تفعل هذا، لويس؟»

فقال بهدوء: «أنت تطلبين أجوبة، وما دنبي إذا كانت لا تعجبك؟»

تمنت لو أن بإمكانها أن تضربه بشيء، أن تلكم صدره المغطى بالحرير بقبضتيها: «أنت... أنت تركت ابنك نائماً وذهبت لتنام مع امرأة أخرى»

ـ نعم، كان ابني نائماً، وآمناً برعاية سلفادورا!

ـ أنت رجل بلا قلب! أما كان بإمكانك أن تتأخر وقتاً كافياً قبل أن تطلق العنان لشهواتك؟

ـ هل هذا نوع من الأشياء التي اعتدت أن تؤذي بها ميراندا أثناء حياتها؟

ـ أخفضي صوتك!

فهزت رأسها: «أي نوع من الرجال ذلك الذي يزور عشيقته ليلة جنازة زوجته؟».

شعر بحرارة القتال تبرد فيها فتركها. وهذه المرة سارت متعثرة إلى كرسي جلست عليه بعينين متبلدتين. ثم قالت وأنفاسها ترتجف: «رباه، لا عجب في أن ميراندا كانت تعيسة للغاية».

شعر لويس أنه نال الكفاية من اتهاماتها وإداناتها له، فتقدم إليها ورفعها لتقف على قدميها غارزاً أصابعه في لحمها الطري: «أنت لاتعرفين شيئاً عن زواجي!».

ـ أنا أعلم ما يكفي!

ـ هل لك أن تهدأي، صوفي؟

ـ أبداً.

رأى شفتيها ترتجفان تمرداً فاندفع شيء في أعماقه، أشبه بحبل من

المطاط قد شُدّ حتى عاد ينقطع. وبزئير غاضب جذبها إليه وعانقها بقوة الغضب، الإحباط، الهياج، والإحساس بالظلم... تفجرت كلها في داخلها ما إن شعرت بذراعيه القويتين تضمانها بشدة، كما حلمت بهما الليلة الماضية في السرير.

لكن هذه المرة أصبح الحلم حقيقة. ومع أن الأمر أعجبها، إلا أنها تعلم أن ذلك خطأ. كله خطأ، فلماذا تتركه يعانقها إذن؟

كان تنفسها ضعيفاً للغاية، إلا أنه لم يمنع آهة صغيرة من أن تنطلق من بين شفتيها. لماذا تشعر وكأنها تذوب وكأنها لم تعرف عناق رجل من قبل؟ في الحقيقة، لم يفعل ذلك رجل آخر ليس مثله على أي حال!

وشعر لويس بذراعيها تلتفان حول رقبته. وصرف بأسنانه غاضباً: «يا إلهي... يا إلهي...».

شعرت صوفي بالحرارة والشوق يغليان في داخلها. ومع ذلك، هذا هو الرجل الذي خدع ميراندا... والذي زار عشيقته الليلة الماضية فقط. إنه يملك من القوة والوسامة ما يجعل أية امرأة يريدها رفيقة منسجمة غير متذمرة، نهمة إلى عناقه ولمساته، تماماً كما هي الآن.

سلخت نفسها من بين ذراعيه وإذا بها ترى السخرية السوداء الكريهة في عينيه. استعادت أنفاسها بسرعة غريبة، ما جعلها تنفجر متهمة بعد لحظة: «ذلك يخبرني بكل ما أريد معرفته، وأي نوع من الرجال تزوجت ميراندا. إنه رجل بإمكانه أن يعانق أية امرأة من دون تمييز... فقط لكي يمنعها من الكلام!»

لكن لويس هز رأسه. لم يكن يعانقها من دون تمييز منه. لا، أبداً فقد أراد أن يفعل ذلك أثناء الليل ومرات كثيرة قبل ذلك. إحساسه الآن بنعومتها ودفئها وبراءتها جعله يشعر وكأنه سينفجر إحباطاً.

وقال بغموض: «لقد استغرق هذا زمناً طويلاً لكي يحصل بيننا،

ونحن الإثنان نعلم هذا ولهذا لا ترعجي نفسك بإنكار ذلك أمامي صوفي»

كانت أنفاسها ما تزال مضطربة وعيناها متوهجتين «نعم. أتذكر الطريقة التي رحت تنظر بها إلي في المرة الأولى التي رأيتني فيها وكأنك لم تر امرأة في حياتك»

فقال بنعومة «ولكن لم تبد لي نظراتك حينها أقل خطراً»

لقد نطق لويس بالحقيقة، ما راد في شعورها بالحري «عرفت حينذاك أي نوع من الرجال تزوجته ميراندا رجل مستعد لأن يقمر إلى أحضان أي امرأة ترغب فيه ويا ليتني أخبرتها بذلك! لكنت فعلت لو أنها لم تكن حاملاً حينذاك!»

ـ أظنك الآن تضغطين عليّ كثيراً يا صوفي

قال هذا بصوت ناعم إلى حد الخطر لقد حاول أن يحترم ذكرى زوجته الراحلة، لكنه لن يمضي حياته كاذباً، كما لن يدع صوفي تأخذ فكرة زائفة عنه وتلعنه إلى الأبد في عينيها إن كرامته لا تقبل بذلك

ـ أنت لا تتركين لي خياراً سوى أن أخبرك الحقيقة عن زواجي عند ذلك فقط سيكون لديك الحق في أن تدينيني

ـ طبعاً، الآن يناسبك أن تكذب عليّ!

ألقى عليها نظرة احتقار باردة كالثلج. «أتظنينني أحمي نفسي بالكذب؟ أبداً!»

استغربت صوفي كيف أن الغضب والاحتقار الأرستقراطيين اللذين ظهرا في صوته جعلاها تصدقه.

راح يقول ببطء: «من المؤلم استعادة سرد الذكريات في البداية، أعجبتني ابنة خالتك كثيراً. كانت حلوة مرحة وعلى شيء من الجنون»

وتنهد وهو يتساءل كم أن حياة الكثيرين قد تتغير لو أنهم استطاعوا

معرفة المستقبل «وقد استمتعنا معاً بعلاقة كانت ترضينا معاً»

ـ أنت تجعل تلك العلاقة تبدو باردة للغاية، لويس!

ـ لم تكن باردة وإنما كانت كما تتمناها أنا لست منافقاً، يا صوفي! وأنت تعلمين ذلك لا أتظاهر بمشاعر لا أملكها

كانت شمس الصباح الدافئة تنصبّ عليه بقوة، لكن لويس كان يشعر بالبرد «أنا لم أقع في غرام ميراندا قط. وكانت هي تعلم ذلك ولم أحاول إخفاء هذا الأمر عنها كانت جميلة جداً ومتألقة، وكنا مسرورين معاً لكنها كانت أيضاً تعلم أن ليس لعلاقتنا مستقبل»

حدقت إليه بقنوط «لكنك تزوجتها! أي جهنم جعلتك تتزوجها من دون حب؟»

ـ تزوجتها لأنها كانت حاملاً بابني كما تعلمين. وهو طفل لم يخطط لقدومه على الأقل لست أنا الذي خططت لذلك

قال الجملة الأخيرة ببطء وتثاقل هزت صوفي رأسها لن تصدق هذا لن تصدق «إذا كنت تحاول أن تخبرني أن ميراندا تعمّدت ذلك، فأنا أعلم أن هذا غير صحيح فهي لم تكن شديدة اللهفة إلى الأمومة، كما أنها كانت تستعمل حبوب منع الحمل لقد أخبرتني ذلك بنفسها!»

ـ بماذا أخبرتك غير ذلك؟

ـ أخبرتني بأن ذلك حصل صدفة فقد شعرت بوجع في بطنها، وذلك

فقاطعها: «صوفي، أنا لا أريد أن أشوّه ذكرى ميراندا، لكن الأمر لم يحصل مصادفة صدقيني كنت أبحث عن بعض الأوراق عندما وجدت أن حبوب منع الحمل لم تُمسّ وواجهتها بالأمر، وإذا بها تعترف بأنها توقفت عن تعاطيها من دون أن تخبرني».

ـ آه، رباه!

قالت صوفي هذّا بصوت خافت. تذكرت ثرثرة ميراندا بعد العرس مباشرة، حين أخبرت صوفي أن لويس هو أكثر الرجال الذين عرفتهم جاذبية وصممت على الحصول عليه بأي ثمن أتراها خططت لذلك حقاً؟ مستعملة أقدم الحيل المعروفة لجعل الرجل يتزوجها؟

وتكهنت بالجواب وقلبها يغوص. وقالت تدافع عنها: «آه، لقد أمضت ميراندا طفولة فظيعة. لم يهتم بها والداها قط كانت تعاني من شعور مزمن بعدم الإحساس بالأمان».

فقال برفق: «أنا لا ألوم ميراندا لتصرفها، وإنما أخبرك فقط كيف حدث الأمر».

ـ ولكن لماذا تابعت الأمر وتزوجتها لمجرد أنها حملت بابنك؟ لم يعد الرجال يفعلون ذلك يا لويس. إذا لم تكن تحبها، لا بد أنك كنت تعلم منذ البداية أن الزواج لن ينجح.

ـ سبق وأخبرتك أنني تزوجتها بسبب إحساسي بالواجب. فالطفل هو ابني بقدر ما كان ابنها! ولم تكن ميراندا تريد أن يولد الطفل غير شرعي، ولا أنا في الواقع. وهكذا قررنا أن بإمكان الزواج أن ينجح. أرادت أن تنعم بالطمأنينة التي ستكسبها بالزواج مني، كما أنني سأحصل على الطفل الذي بدأ قلبي يحنّ إليه.

ـ لقد كان زواج مصلحة إذن؟

ـ أو.. لنقل زواجاً مناسباً.

فسألته بحرارة: «وهل كنتما صادقين مع بعضكما البعض منذ البداية؟ هل أخبرتها بأنك لن تبقى مخلصاً لها وأنك ستبدأ قريباً بالبحث عن سلوى عند امرأة أخرى؟».

ساد صمت آخر قبل أن يجيب: «لا. لم تكن هي صادقة، ولا أنا! لقد أردت الوفاء بهودي الزوجية كلياً، يا صوفي أنا رجل شريف!».

وضاقت عيناه وهو يتذكر: «ولم يكن صعباً عليّ أن أبقى مخلصاً لامرأة مثل ميراندا فالزواج يمكن أن يؤسس على أكثر من مجرد الحب، كما تعلمين وفي الواقع، حضارات كثيرة تؤمن بأن الزواج ينجح إذا كان مؤسساً على الثقة والاحترام أكثر منه على الحب. ولكن».

ـ ولكن ماذا؟

اختار كلماته بعناية، فهو لا يريد أن يؤلمها ولكن قد لا يكون هناك مناص من الألم إزاء الحقيقة: «لا أظنني قدمت إلى ميراندا نوع الحياة التي تريدها حقاً».

ـ آه، لا تقل هذا، لويس كانت تحبك بشغف.

فقال بحزم: «لا كانت تحب ما أقدمه إليها. لكن الحقيقة قصرت عن بلوغ الهدف كانت تعشق حياة الترف والرجل المتألق المنغمس في الملذات كما كنت أنا حين تعارفنا. أما الحياة في هذا البيت، «لاريوجا» والقيام بدور الزوجة والأم فلم يناسباها على الإطلاق. لقد وجدت أن الحياة الهادئة البطيئة هنا لا تُطاق، فأرادت أن تعيش في برشلونة. وقد اعتادت أن تسميها «باريس الحرية» لكن ذلك لم يكن ممكناً».

ـ كان بإمكانكما الوصول إلى حل وسط والذهاب إلى هناك أثناء العطلات الأسبوعية.

ـ قمنا بهذا فعلاً، واستمر الأمر كذلك لفترة حتى أن تيودور ذهب معنا مرة، ولكن... كما أخبرتك مرة:.. وجود الطفل يغيّر كل شيء.

ـ هذا ليس ضرورياً..

فتنهد: «هذا كلام من ليس لديه طفل. لكن الطفل يغيّر الأمور، يا صوفي، أكثر مما تظنين. عندما يكون لديك طفل، لا يمكنك التأخر في النوادي الليلية، والنوم حتى الظهر».

ـ هل كانت تفعل ذلك؟

ـ نعم، كانت تفعل ذلك. وفي الفترة الأخيرة كانت تذهب بالطائرة إلى «برشلونة» وحدها تاركة تيودور هنا، بينما تسهر هي في الحفلات حتى الصباح. فقلت لها إنها إذا استمرت على هذا المنوال فسيحدث بيننا ما لا مناص منه، فيعيش كل منا حياة منفصلة. وهذا ما حصل.

ـ وهل كان ذلك عندما وجدت لنفسك صديقة؟

فبدا الأسى على وجهه. «لا، وإنما اقترحت أن نعقد جلسات للتشاور. تابعت ميراندا الجلسات الثلاث الأولى قبل أن تخبرني بأنها تقيم علاقة مع رجل آخر عند ذلك رحت أبحث لنفسي خارج بيت الزوجية عما حُرمته في بيتي».

سمعت رنين الحقيقة في صوته. وبالرغم من كل شيء هفا قلبها إليه، فهمست: «أواه، لويس. هذا فظيع. لماذا لم تتطلقا؟».

فضحك بمرارة: «أتظنين الأمر بتلك السهولة؟ ربما هو سهل في إنكلترا... ولكن لم تكن لديّ نيّة في أن أدع تيودور يتمزق في معركة الوصاية. أو أن أدعه يعيش، ولو لفترة قصيرة، مع أم لا تهتم به كما يجب. كثير من الزيجات تستمر على هذا النحو يا صوفي».

ـ ثم ماتت.

وسمّرته بنظرة ثابتة. مدركة أن «الرجل الحديدي» الذي كانت تظنه، لم يكن له وجود. فلويس إنسان كبقية البشر. مع أن هذا الرجل الوسيم الغني الواسع النفوذ لم يمنح قلبه لميراندا، لكن لديه ضميراً حياً للغاية وشعوراً بالواجب.

ـ أظن أنك شعرت بالراحة في التخلص من مثل هذا الزواج الفارغ.

فتصلّب فمه: «أتظنينني غولاً أسود القلب بحيث أتمنى لأم إبني الموت؟».

ـ لكن سلوكها لم يكن يعجبك!

فتنهد: «لا لم يكن يعجبني... لا أنكر أنني شعرت بشيء من الارتياح لأنه لم يعد هناك شقاء. ولكن، صدقيني، شعرت بالذنب لهذا التفكير».

لا بد أن الاعتراف بذلك كان صعباً عليه، لكنه بدا صادقاً. أفلا يستحق منها بالمقابل أن تكون صادقة معه هي أيضاً؟

ـ أظن أن بإمكاني أن أفهم هذا. لا أحد منا يخلو من مشاعر كنا نفضل ألا نمتلكها.

أنهت كلامها بشعور مرّ بالذنب. فقال برزانة: «شكراً».

ناوهت طويلاً مسكينة ميراندا الحلوة، ميراندا الحمقاء! أرادت لويس فمنحها من ذاته كل ما استطاع أن يمنحه، فألقت بكل ذلك جانباً لتلاحق بحثها الجنوني عن الحياة في أوسع مجالاتها.

ولكن مع إدراكها بأن الأمور ليست بالبساطة التي تتصورها، راود صوفي شعور آخر أكثر إثارة للذعر: لم تكن تريد أن تفكر في لويس بصفته رجلاً ذا مبادىء وقيم أصيلة، لأن ذلك سيجعلها تزداد رغبة فيه. لويس ليس لها، ولن يكون قط وبينهما يقف هذا التاريخ المؤلم.

نعم، لقد أظهر ذلك العناق أن المشاعر الجسدية ما زالت قوية بينهما لكنها لن تخدع نفسها بالتفكير في أنها الوحيدة التي تشعر بذلك. فقد يكون عناقه لأي امرأة سواها بهذا الشكل. وأي امرأة لا تلتهب إذا لمسها رجل مثل لويس؟

بالإضافة إلى ذلك، ألم تنسى شيئاً آخر؟ تصرفه نحو ميراندا أثناء الزواج قد يكون له ما يبرّره، لكن تصرفه هذا الصباح ليس كذلك. فسألته وقد نسيت تماماً حقيقة تصوراتها له في أحلامها أثناء الليل: «هذا لا يغيّر حقيقة أنك عانقتني الآن، أليس كذلك؟ وذلك بعد ليلة غرامية أمضيتها مع صديقتك! لا أرى لديك أي احترام لنا نحن الإثنتين في تصرفك هذا!».

تصلّب فمه، لكنه لم يقل شيئاً لتصحيح زعمها المرّ هذا. كلما قلّ ما تعرفه، كلما أسرعت بالرحيل... وهو يريدها أن ترحل. فما يعرفه حقاً عن صوفي ميلز هو أنها حدّقت فيه ذات مرة بشوق يماثل شوقه إليها. وأن تجاوبها مع عناقه قد حدثه عن وعود خطيرة بينهما.

لكن ذلك لم يخبره عن دوافعها الحقيقية لوجودها هنا، وعما تريده حقاً، وعما يدور خلف عينيها الساحرتين الزرقاوين تلك.

لا. حاجته إليها هنا بقدر حاجته إلى ثقب في رأسه

وقوّى نفسه ليقول برقة وببطء: «وهكذا، ما الذي ستفعله بهذا الشأن، صوفي؟».

حدّقت صوفي إليه والوهج المنبعث من عينيه يثبت ذكرى ذلك العناق في ذهنها، ما جعلها، للحظة تظن أنه يعني... يعني...

فسألته بلهفة: «أتظن... أتظن... أنني أريد الاستمرار في ما ابتدأنا فيه؟!».

تصلب فمه توتراً وقنوطاً: «هل هذا ما تريدينه».

جزء منها أراد أن يقول نعم... وأنها تريد ذلك أكثر مما أرادت أي شيء آخر في حياتها.

وعاد لويس يقول وهو ينظر إلى اللون الذي يتصاعد ببطء إلى وجهها وعينيها: «هل هذا ما تريدينه؟».

- لم يسبق لي أن تلقيت مثل هذا العرض المغري في حياتي!

فواجهها بلهجة مهينة: «لم أكن أقدم إليك عرضاً، بل كنت ألقي عليك سؤالاً. رغم أن السؤال الذي كان عليّ أن ألقيه هو ما إذا كانت معرفتك بما حدث تجعلك تغيرين رأيك بالنسبة إلى البقاء هنا».

- آه، الآن فهمت.

ونظرت إليه بعينين متوهجتين: «ألهذا السبب عانقتني؟ لأنك ظننتني

سأكون من الهياج بسبب تصرفك بحيث أندفع من هنا كالعاصفة، وأرحل قبل أن تتاح لتيودور فرصة ليعرفني أكثر؟ حسناً، إذا كانت تلك هي القضية، آسفة إذ أقول لك إن حكمك عليّ سيء جداً يا لويس».

- أتعنين أنك ما زلت تريدين البقاء؟

فهزت رأسها. كل ما تعرفه هو أنها تريد أن تأخذ تيودور إلى إنكلترا ليقابل جدة أمه لكن غريزتها حذرتها من أن هذه ليست اللحظة المناسبة. لكي تسأله. «لا أدري إذا كانت (أريد) هي الكلمة المناسبة ربما كلمة (أحتاج) هي الأفضل كما سبق وقلت، تيودور بحاجة إلى أن يعرف أن لديه أسرة أخرى».

- حسناً جداً.

ألقى عليها نظرة تقييم باردة ثم هزّ كتفيه، وقال: «أنهي فطورك».

- وكأن شيئاً لم يحدث؟

- لم يحدث شيء ولن يحدث.

- أتعني أنك لن تعانقني مرة أخرى؟

- ليس وأنا غاضب. لا، لن يكون ثمة حاجة لإسكاتك إذا لم تستمري في ادعاءاتك القاسية ضدي.

وابتسم ساخراً: «طبعاً، إذا دعوتني إلى ذلك، سيكون الأمر مختلفاً كلياً».

- آه. لا تقلق، لويس... ليس لديك حظ في ذلك.

سكب لنفسه فنجان قهوة: «وإذا كنت تنوين البقاء، فأنا أقترح إذن أن نتصرف بشكل مهذب نحو بعضنا البعض. أتظنين بإمكاننا ذلك؟ هل يمكننا أن نكون منسجمين؟».

هل يمكنهما ذلك؟ أن يتجاهلا تلك التوترات التافهة التي لا يبدو أنها تبارحهما؟

رأى التردد والنفور على وجهها فسألها بهدوء: «هل لديك اقتراح آخر؟ كأن نأكل وجبات الطعام كل على حدى؟ أن لا نتصل ببعضنا البعض أثناء وجودك هنا؟ إذا كانت هذه رغبتك فهذا يعني أنك لن ترى تيودور إلا قليلاً للغاية. بينما أنت تعترفين بأنك تريدين التعرف إليه»

ـ «أعترف» بأنني أريد التعرف إليه؟ طبعاً أريد ذلك! ولماذا تظنني أبقى هنا إذاً؟

هزّ كتفيه ومد يده يأخذ خوخة «يمكنني أن أفكر في عدة أسباب»

ـ مثل ماذا؟

ـ ربما تريدين أن تكتشفي إذا ما كنت قد كتبت جزءاً من ثروتي لابنة خالتك والذي قد تكون كتبته لك.

جلست صوفي قبل أن تنهار ركبتاها: «يا إلهي، إنك لا تنفك تدهشني. كنت أظن أن رأيك بي لا يمكن أن يكون أكثر سفالة، ولكن، كم كنت مخطئة! آسفة إذ أخيب أملك، لكن أموالك لا تهمني أبداً»

تألقت عيناه كالأبنوس المشتعل: «مهما كانت أفكارنا الداخلية، صوفي، عليك أن ترغمي نفسك على القبول بالواقع. إذا كانت زوجتي رأت أليخاندا وتقبلت علاقتي بها، فما السبب الذي يجعل ذلك يؤذيك أنت؟ لا فائدة من أن نتشاجر أنا وأنت. لا يهم ما أظنه بك أو تظنينه بي، ذلك أننا لا نعني لبعضنا البعض شيئاً سوى علاقتنا المشتركة بتيودور، مهما حدثنا جسدانا بغير ذلك».

غريب! كيف يمكن للكلمات أن تجرح كالأسهم. قالت صوفي بألم: «حسناً جداً. أنا واثقة أن بإمكاني أن أكون مهذبة لعدة أيام».

ـ هذا حسن. آه، قبل أن أنسى...

تابع يقول وهو ما زال يقشر الخوخة: «عليّ أن أحضر عرساً لأحد الأقارب في مدريد أثناء العطلة الأسبوعية القادمة، وسآخذ ابني معي. إذا

كنت ما تزالين هنا، ربما تحبين أن تأتي معنا»

ـ هل أنت جاد في ما تقول؟

ـ لما لا؟

ـ أليس من المبكر أن تحضر عرساً؟ ألا تريد أن تقوم ببعض فرائض الحداد؟

تابع تقطيع خوخته: «الحياة تستمر، يا صوفي، خصوصاً حياة ابني. سيكون لنا أقارب هناك لم يروا تيودور منذ أشهر، وهم يتمنون لو يعانقونه ويعزّونه»

فقالت بصوت أجوف. «ويعزونك أنت كما أظن. أنت الأرمل الحزين».

قابل عينيها بنظرة هادئة: «هذا عائد إليك: تعالي إذا شئت إبقي هنا فهذا لا يهمني»

ـ ليس... ليس لدي ثوب مناسب لحضور عرس.

ـ أنا واثق أن بإمكانك العثور على ثوب مناسب. هنالك ثياب رائعة في المدينة»

قال هذا ثم ابتسم ببطء: «سيكون عليّ أن آخذك لتتسوّقي، أليس كذلك؟».

كان ذلك عرضاً من رجل متملك... ذلك النوع من العروض الذي يقدمه الرجل لصديقته دون اهتمام.

لا شك أنه يقدم مثل هذا العرض لأليخاندرا. من المفترض أن يبعث ذلك قشعريرة في جسدها، فما الذي جعل خفقات قلبها تتسارع بلذة وبهجة غريبتين؟

٦ ـ للنساء فقط

مال لويس إلى الأمام يخاطب السائق: «قصر سانتو مورو من فضلك».

ـ نعم، سيدي.

خرجت سيارة الليموزين الفخمة من المطار نحو وسط مدريد، بينما عاد لويس يستقيم في مقعده. ثم قال بلطف: «أنظري إلى مدريد، صوفي. وتملي من جمالها بنفسك».

أطاعته صوفي وأخذت تنظر من نافذة السيارة وهي تفكر أن جمال المدينة يبهت أمام روعة الرجل الذي يجلس إلى جانبها. لكم تغيرت علاقتهما منذ أخبرها عن حقيقة زواجه. إنه شيء لا يصدق!

لم يعد هناك المزيد من الشجار أو الإتهامات المتبادلة... لقد أصبحا مهذبين بشكل حازم مع بعضهما البعض. رغم أنهما يتعاملان بشكل حذر، فقد صمما على أن يحافظا على مسافة بينهما قدر الإمكان.

وكان لويس على حق. لقد أدركت صوفي ذلك الآن. إنها حقاً ليست في وضع يسمح لها بانتقاده لاتخاذه صديقة فهذه حياته والخيار يعود إليه، وهي ليست جزءاً من هذه الحياة. كانت تشعر بالألم كلما فكرت بهذا الأمر، لذا حاولت أن تبعده عن تفكيرها بقدر استطاعتها. وقد سهل عليها ذلك أنه، حسب علمها، لم يعد إلى زيارة أليخاندرا مرة أخرى... وهذا يعني أن لا مزيد من المواعيد الليلية.

تكهنت بأنه كان ينتظر عودتها إلى إنكلترا. ورحلة العودة هذه حاضرة في ذهنها إلى درجة كبيرة، لكن ما زال عليها أن تقرر موعد رحيلها. فهي تعلم أنها لا تستطيع البقاء في إسبانيا إلى أجل غير محدّد، لكنها لم تستطع استجماع شجاعتها بعد، لتسأله عن مسألة اصطحابها لتيودور معها.

كانت تنتظر اللحظة المناسبة، وتلك اللحظة لم تأت بعد. وهي ما زالت خائفة مما يمكن أن يكون عليه جوابه.

لا يمكنها أن تنكر أن الأيام السابقة للعرس كانت أياماً ممتعة للغاية تقريباً ممتعة أكثر مما يجب.

في الصباح، خرج لويس إلى العمل تاركاً صوفي لتساعد سلفادورا في الاهتمام بتيودور. وقد اكتسبت صوفي الآن ثقة سلفادورا وكذلك مودة تيودور

بدت المرأة المسنة متلهفة إلى أن تكلفها بمزيد من المهمات. ولم يكن لدى صوفي مانع في هذا. وتحت عيني سلفادورا المراقبتين، أخذت تعلم تيودور السباحة. عاد لويس من العمل مبكراً بشكل غير متوقع، فوجدهما يتخبطان في بركة السباحة ببهجة بالغة.

ـ ما هذا؟

فرفعت صوفي بصرها وقد جعل البلل شعرها يلتصق بجمجمتها وراح الماء ينساب على وجهها، بينما بدا تيودور غارقاً في الضحك بقربها.

ـ أنا أعلّم تيودور السباحة.

ـ دون إذني؟

ـ لقد فزت بكأس السباحة على الصدر. فهو آمن تماماً معي!

فأجاب بلطف: «أرى ذلك بوضوح. لكن في المستقبل يجب أن تبحثي الأمور معي مسبقاً، صوفي، هل هذا مفهوم؟».

ـ تماماً.

قالت هذا ثم غطست قليلاً في الماء فقد شعرت فجأة أن بذلة السباحة مكشوفة للغاية. قال لويس بإيجاز «هذا إذا ما فكرت بأن تأخذيه إلى تسلق الجبال».

عند العصر بعد انتهاء القيلولة، أراد لويس أن يعرّف صوفي على بقية أنحاء المنزل «لاريوجا» والمناطق الريفية المحيطة به قدر ما يسمح به الوقت.

جعلتها هذه الجولة تزداد حباً لهذا المكان، فقد شغفت بجو المنطقة المسالم وجمالها الطبيعي اللذين جعلا لندن تبدو بالمقارنة بها غبراء بالغة الازدحام. رأت بنفسها مياه بهر «إبرو» الصافية العميقة، وهو النهر الوحيد في إسبانيا، وهو يصب في البحر الأبيض المتوسط، وقد غرست ضفتاه بكروم العنب وانتشرت حولها صفوف من حدائق الخضار.

بدت جبال «سيرا دي لاريماندا» رائعة الجمال.

ابتسم لويس بتسامح تقريباً، عندما عبّرت صوفي عن إعجابها بها: «إنها رائعة جداً، وعالية بما يكفي للتزلج على الثلج».

- هل تجيدين التزلج على الثلج، صوفي؟

- أنا مدمنة على ذلك.

- وأنا أيضاً.

لم تكن ترغب بأن يكتشف الأشياء التي يشتركان بحبها. يا ليته أخبرها بأنه يكره التزحلق على الثلج من كل قلبه!

كان قد أوقف السيارة وبذلك استطاعا أن ينظرا إلى أخاديد «ريوجا باجا» الرائعة الجمال: «أنظري إلى ذلك المكان. الديناصورات هناك جعلت الأرض تهتز...».

- هل أنت جاد في ما تقول؟

- بكل تأكيد. أو على الأقل تركت آثار أقدامها الغريبة في مستنقعات

تعود إلى ما قبل التاريخ، وقد أصبحت الآن متحجرة.

وراح يخبرها أن السياح لا زالوا حتى اليوم يأتون من كل أنحاء العالم إلى هذه المنطقة، لكي يروا البراهين على وجود تلك الحيوانات الضخمة. كانت هذه ناحية من إسبانيا لم تعلم بوجودها.

قال مازحاً: «هل كنت تظنين أن ليس لدينا سوى الثيران؟».

فأجابت ببطء: أظن ذلك».

- يا للعار، يا صوفي، لنقص ثقافتك.

هناك الكثير مما يرغب أن يعلمها إياه عدا التاريخ، لكن ذلك ممنوع عليه. إنها هي نفسها ممنوعة، ومراوغة، ومجهولة، كما ذكّر نفسه.

في عصر أحد الأيام كان الطقس منعشاً يثير البهجة. ذهبا برفقة تيودور إلى جبل «أرالارا» السحري، المغطى بأشجار الزان والزعرور البري، في منطقة «نافارا».

فتحت صوفي سلة الطعام البسيطة وأخذت تنظر حولها. بينما حمل لويس تيودور على كتفيه ليمنحه رؤية جيدة لما حوله، راح يحدثه بحكاية «سان ميغيل» الأسطورية. استلفت صوفي إلى الخلف وأخذت تصغي مأخوذة وعندما انتهى تمتمت تقول: «إنها حكاية رائعة. وهذا المكان رائع أيضاً».

وأشارت إلى المشاهد الخضراء الخصبة حولها.

رفع حاجبيه: «هل ظننتها وعرة غير مضيافة؟».

- قليلاً.

وافقته وهي تفكر أنها تصورته هو كذلك أيضاً قبل أن تكتشف أنه لا يتصف بأي من هذه الصفات، بل هو حساس عاطفي، من دون أن ينتقص ذلك من رجولته الفياضة وقوته الفطرية.

ومع مرور الوقت، أصبحت أكثر تفهماً لما جعل ميراندا تصمم على

امتلاكه.

وعند كل مساء، بعد العشاء، كانت صوفي تنسحب إلى غرفتها لتتفحص بريدها الإلكتروني وتقرأ ما يوجهه إليها ليام.

كان أوليفر يتصل بها من حين إلى آخر، أما ردة فعلها لاتصالاته فكانت وصولها إلى ما يشبه حافة اليأس.

تذكرت الحماسة التي كانت تشعر بها وهي تنتظر مواعيده. لكن تلك الحماسة تبخرت إلى ما يشبه اهتمام الأصدقاء، من ناحيتها هي على الأقل. وكانت من الفطنة بحيث أدركت السبب.

سألها خلال أحد اتصالاته: «متى ستعودين يا صوفي، وتتعشين معي؟».

- لا أدري. لم أقرر بعد.

- أنت تعلمين كم أحب الخروج برفقتك. كان علي أن أطلب منك ذلك منذ دهور، لكنني أظن أن سمعتك منعتني.

فضحكت: «أية سمعة؟».

- آه، أنت تعلمين... أنت باردة لا أحد يستطيع الاقتراب منك.

باردة؟ لا أحد يستطيع الاقتراب منها؟ إنها تراهن براتب شهر أن فكرة لويس عنها مختلفة.

مرة واحدة فقط جلست مع لويس في الشرفة. وكان الوقت متأخراً والقمر يبدو في السماء كطبق من الفضة. وقد ارتفعت حولهما أصوات زيز الحصاد الحادة. راحت صوفي تتحدث عن شركتها... عن آمالها وأحلامها فيها، وعن قرب تحقق تلك الأحلام والآمال.

- أنا أهنئك لطموحك هذا!

قال لويس ذلك بلطف بينما خنقت هي آهة. بدت الجلسة رائعة كما بدا هو رجلاً رائعاً. إلا أنه بكل تأكيد، ليس بالرجل الكامل لها. هذا ما

عليها أن تذكر نفسها به دوماً.

انسابت السيارة في أحد شوارع مدريد. وأدركت صوفي بشيء من الضيق أن الأمر يبدو وكأنهما في إجازة. وقالت بسرعة حين أسرعت السيارة في سيرها: «أخبرني الآن عن العروس والعريس».

التفت إليها: «ماذا تريدين أن تعرفي؟».

- آه، الأمور المعتادة. أي شيء!

أي شيء يجعلها تتوقف عن التفكير فيه وفي قوة انجذابها نحوه. يا ليت الطفل يستيقظ ليشغلهما! لعله يحوّل انتباهها عن عينيه اللتين كانتا تراقبانها. لكن تيودور الذي ظل مستيقظاً لاهياً طوال الرحلة بالطائرة، ينام الآن ملء جفنيه.

أجاب لويس: «رامون من أبناء عمي. سوف يتزوج إستريللا التي يعرفها منذ سنوات».

- هل يحبها إذن؟

إلتفت إليها ليرى التحدي في نظراتها، فضاقت عيناه. كان يعرف ما وراء سؤالها هذا... أترى زواج ابن عمه سيكون نسخة عن زواجه هو؟

- رامون يحب إستريللا من كل قلبه.

قال هذا بهدوء، ولأول مرة في حياته يشعر بالحسد نحو شخص آخر.

- حسناً... أظن في ذلك شيئاً ما.

- نعم. وهي متعلقة به إلى حد لا يمكنها معه أن تتصور أن تشاركها فيه امرأة أخرى.

نقالت بجفاء: «وهذا أيضاً شيء ما».

نقال ساخراً: «إذن فأنت ذات طبع شاعري، أليس كذلك، صوفي؟».

- أنا أؤمن بأن الزواج يعني التخلي عن كل شخص آخر. أليس هذا ما

تقوله العهود الزوجية؟

فقال بهدوء: «هذا ما يقولونه».

وقبل أن يتحول النقاش إلى توتر بينهما، قالت صوفي: «إذن سيكون في العرس الكثير من أقربائك».

- نعم، الكثير منهم. والداي وأخواتي وأقارب غيرهم لا يحصون.

- وخلاصة الأرستقراطية الإسبانية كما أظن

فمال برأسه: «طبعاً».

قال ذلك بعدم اهتمام وكأن هذا الأمر طبيعي. بدا بالغ الثقة بنفسه وبمقامه الرفيع في العالم. وربما كان ذلك هو الجزء الرئيسي من جاذبيته. لو كان.. عاملاً في مزرعته مثلاً، هل تنظر إليه امرأة مرتين وتفقد عقلها لأجله؟

أخذت صوفي تتصور ذلك السيناريو في ذهنها بشكل كامل. لويس يقوم بعمل جسماني شاق، نعم. ليس من الصعب تخيل ذلك على الإطلاق. تكوينه الجسماني يظهر أن بإمكانه القيام بأعمال كهذه بسهولة. تصورت قطرات ضئيلة من العرق اللامع على بشرة كتفيه العريضتين السمراوين، وتموّج عضلاته وهو يعمل في الحقل... وانحبست أنفاسها في حلقها. رجل مثل لويس سترغب به النساء مهما كان عمله.

- ألن يستغربوا إحضارك إبنة خالة زوجتك معك إلى عرس للأسرة؟

- سيتقبلون الأمر من دون تفكير لأنك من أنسباء الأسرة. الإسبانيون يهتمون كثيراً بأقاربهم.

أخذت تنظر من النافذة وهم يمرّون بمباني المدينة الرائعة الفخمة.

إنها محظوظة لتمكنها من التنقل عبر إسبانيا بالطائرة بمثل هذه الرفاهية. لكنها لم تشعر بأنها كذلك، بل شعرت... بالحزن. نعم، بالحزن. فيا للغباء! ذلك أنها ستغادر هذ المكان وهذا الرجل عمّا قريب.

ومع أن ذلك سيكون الأفضل لها... إلا أن جزءاً منها بدا متلهفاً إلى البقاء.

- هل أنت متحمسة لوجودك في مدريد يا صوفي؟

سألها لويس برقة وهو يرى التوتر المفاجىء في جانب وجهها. وتساءل عن سبب هذا التوتر.

- نوعاً ما.

فقال بجفاء: «آه، أليس هناك ولو شبه مديح؟ لو كانت مدريد امرأة لأخذت تبكي الآن!».

- آه، ليس لديّ شيء ضد المدينة بالذات.

- إذن المشكلة في رفقة السفر فقط، أليس كذلك؟

التفتت تواجهه، فأسرتها عيناه الفاحمتان وشفتاه الممتلئتان.

- لو أن لدي الخيار، لا أظنني سأستقر معك ولو لعطلة أسبوعية واحدة.

فتمتم يقول: «كرامتي جُرحت إلى حد بالغ».

- هذا يشكّل تغييراً بالنسبة إليك.

فقال برزانة: «هذا صحيح تماماً».

ضمت صوفي شفتيها بشدة وقد كرهت منه أن يمازحها ساخراً بهذا الشكل، أو ربما أحبته لأنه يذكرها بحميمية هي غير موجودة أصلاً. إنهما مجرد شخصين جمعتهما الظروف معاً، وهما يحاولان جاهدين أن يصلحا وضعهما الشاذ.

ولكن، في الوقت الحالي، لم يكن الوضع يبدو شاذاً. فقد بدت حماستها أشبه بحماسة تلميذة مدرسة في أول رحلة لها إلى خارج البلاد، لوجودها معه ومع تيودور في مدينة رائعة. لا شك أنهم سينزلون في أحد أفخم الفنادق.

لو كانت أكثر حكمة لرفضت مرافقته في هذه الرحلة، ولكن ما الفائدة من ذلك؟ سوف تمضي الوقت وهي تتسكع حول الفيلا الرائعة وحدها، بينما تيودور يبعد عنها أميالاً كثيرة. وهي قد حضرت إلى هذه البلاد خصيصاً للتعرف إليه. حدثت نفسها بأنها لن تبقى هنا لمدة غير محدودة...

فيما يتعلق بالعمل، كان ليام والآخرون يقومون بالعمل بشكل جيد، لكن صوفي تلعب في الواقع دوراً حيوياً في الشركة، ولا يمكنها التخلي عن دورها لفترة طويلة بينما هي تسرح وتمرح في إسبانيا.

فيما هي غارقة في تأملاتها، رن جرس الهاتف في حقيبتها، وسمعت لويس يتأفف بفروغ صبر. وقال ببطء: «ألا تقفلين هاتفك هذا أبداً؟».

- وما فائدة الهاتف إذا لم يستطع الناس أن يتصلوا بي بواسطته.

وقرأت الاسم المطبوع على الشاشة: «ليام، مرحباً؟ ماذا حدث؟».

رفع لويس حاجبيه وهو يبعد خصلات شعر طفله عن وجنته. لقد أخبرته من قبل أن ليام هو شريكها. ولكن ربما شريكها هذا يريد منها أكثر من مجرد ترتيبات العمل، باعتبار المرات الكثيرة التي يتصل بها فيها!

أخذ يفكر متأملاً في ما سيقوله ليام إذا علم بمحاولاتها الجاهدة لكبح انجذابها إليه؟ هذا الانجذاب الذي يزداد وضوحاً كلما حاولت أن تخفيه.

تساءل عما إذا كانت تعرف مبلغ شفافية وجهها المعبّر. فما إن تتلاقى نظراتهما حتى يصبح لون عينيها داكناً ويتلون وجهها بحمرة الشعور بالذنب بشكل فاضح، وكأنها تخاف أن يقرأ أفكارها.

ليس أفكارها... لا... بل جسدها، نعم... فهذا من السهل قراءته. خبرته مع النساء تجعله يدرك بيقين بأن صوفي لا يمكنها مقاومته على الإطلاق. وكانت تقول: «لا. أنا في مدريد مع لويس».

ورد عليها ليام: «مدريد؟ أتعنين أنك في المطار؟ هل ذلك يعني أنك قادمة إلى الوطن؟».

- لا... ليس الآن. أنا... أنا في الواقع ذاهبة لحضور عرس عائلي.

وساد صمت قصير قال ليام بعده غير مصدق: «معه هو؟».

ألقت صوفي نظرة على جانب وجه لويس إلا أن وجهه لم يظهر أي تعبير بل بدا كأنه منحوت من الرخام. مع أنه كان يسمع كل كلمة تقولها، أخذت تنظر إليه وهو يسوّي خصلات شعر ابنه بذهن شارد. ثم ردّت: «هذا صحيح».

وفكرت أن لويس يقوم بدور الأب بشكل لا غبار عليه. إنه أب رائع!

- هل تصغين إليّ صوفي؟

سألها ليام، فاكتشفت، مذعورة، أنها نسيت أمر المخابرة الهاتفية، تاركة أفكارها تسرح بعيداً... وقد اعتادت، مؤخراً، أن تسرح في اتجاه معروف تماماً.

- كنت أظن أن الغرض من سفرك هو أن تكوني بجانب ابن ابنة خالتك، لا أن تطوفي في البلاد طلباً للمتعة مع رجل يفترض أنك لا تطيقينه.

- لكن تيودور معنا.

- ليس هذا ما أعنيه...

- إسمع ليام. لا يمكنني أن أتحدث الآن.

قالت هذا بلهجة ذات معنى، ولاحظت أن فم لويس تصلب بابتسامة صغيرة جافة، فتملكها القلق من أن ينطق ليام بشيء مهين حقاً عنه فيسمع هذا: «هل لديك شيء خاص تريد أن تحدثني عنه؟»

- ماذا، آه، نعم. إنه عن تيد جاكوبس...

- سأتصل به عبر الإنترنت!

- إنه يريد أن يراك.

- حسناً، هذا غير ممكن الآن!

- لكنه قال...

فقاطعته لأن تيودور بدأ الآن يتحرك: «إسمع يا ليام. أنت قادر تماماً على التعامل مع تيد بنفسك».

- نعم، لكنه يفضلك أنت.

فتنهدت: «أنا أعلم أنه يفضلني، ولكن عليك أن تشرح له ما حدث. أنا بحاجة إلى أن أكون هنا. الطفل بحاجة إليّ».

فسألها ليام ببطء: «وماذا عن لويس؟ هل هو أيضاً بحاجة إليك؟ يبدو لي أنك التصقت في المكان الذي تركته ابنة خالتك. صوفي، هل هذا هو الأمر؟».

لو يعلم فقط أن ميراندا كانت تمضي معظم أوقاتها في الناحية الأخرى من البلاد! كانت صوفي تعلم أن ليام يسألها بسبب اهتمامه بها، لكنها لا تستطيع أن تشرح له أن لويس لا يريد بديلاً عن زوجته... وخصوصاً أن لديه صديقة تنتظره بفروغ صبر فتنهدت: «إتصل بي يوم الإثنين وسأكون عند ذلك قد عدت من مدريد. إتفقنا؟».

- اتفقنا. سأتحدث إليك الإثنين. استمتعي بوقتك.

لم يبدُ أنه يعني ذلك.

أقفلت الهاتف لترى لويس ينظر إليها. جاء صوته العميق مليئاً بالتسلية: «إذن لا يمكنهم التعامل مع الزبائن من دونك؟».

- عليّ أن أشعر بالغرور، لأنهم يفتقدونني عندما أتغيب.

- لكنك لا تشعرين بالغرور؟

ألقت نظرة على أهداب الطفل التي بدأت تتحرك. ما أغرب أن تجد

نفسك وقد غيرت رأيك بالنسبة إلى أمور معيّنة! كانت صوفي عرّابة لطفلتين وهي تحبهما للغاية لكنها لم تكن قط واحدة من أولئك النساء اللواتي يضعن إنجاب طفل في قمة رغباتهن.

ومع ذلك، فإن الوقت الذي تمضيه مع تيودور قد فتح عينيها تماماً فقد اكتشفت أن الفوز بابتسامة من طفل صغير لا يقل أهمية عن الفوز بصفقة عمل كبرى.

أو ربما تيودور بالتحديد له ذلك التأثير الكبير عليها. وابتسمت حالمة إزاء رأسه النائم، قبل أن تتذكر أن لويس كان يتحدث إليها. رفعت بصرها إليه وإذا به يراقبها. فقالت عائدة بأفكارها إلى الحاضر: «لست مغرورة بشكل خاص. لا وإنما هذا يجعلني أتساءل عما إذا كان يجدر بي انتداب شخص مكاني يمكنه تأدية العمل بشكل فعّال، إذا لم يستطيعوا العمل من دوني لمدة أسبوعين. أو ربما علينا أن نفكر بجد في موظف جديد. لقد خطر ببالي أن عدد الموظفين لا يتلاءم مع توسّع الشركة».

خلال الأمسيات التي تمضيها في غرفتها كان لويس يسمع صوت الكومبيوتر، فقال لها: «أنت مجتهدة في العمل».

- حسناً، وكذلك أنت.

فقال بفتور. «لم أعمل كثيراً مؤخراً».

- لأنك مشغول جداً بطفلك.

- نعم.

ونظر إلى ابنه لاوياً شفتيه، ليس فقط مع طفله، لكن مع صوفي أيضاً. النزهة على الجبال لم تكن مدرجة في برنامجه. حاول أن يقنع نفسه بأن هذه النزهات القصيرة هي لأجل مصلحة ابنه إلّا أن ذلك لم يكن صحيحاً تماماً، فقد كان يشعر بالمتعة وهو يريها بلاده.

أما صوفي، فقد بدت متحمسة جداً لما كان يريها إياه. وقالت

مازحة: «لكن كروم العنب لن تصل إلى نموها التام من دونك. أليس كذلك؟»

فضحك: «لم يحدث ذلك قط من قبل».

- ليس هناك من لا يمكن الاستغناء عنه حتى أنت، لويس.

فقال متأملاً «وكذلك أنت أليس كذلك؟».

عندئذ استيقظ الطفل ودس إصبعاً في فم أبيه ثم غرق في الضحك... وكأنه يريد من أبيه أن يضحك أكثر. وما لبثت السيارة أن وقفت أمام مبنى فسيح.

فتح لهما الباب رجل يرتدي ثياباً رسمية، فنظرت صوفي إلى الواجهة الرائعة، ثم قالت بفتور: «يا الله! هل سنقيم هنا؟».

- ليس نحن فقط. معظم أفراد العائلة حجزوا غرفاً هنا. هل يعجبك المكان؟

يعجبها؟ وكيف لا يعجبها ؟

- إنه جميل

- انتظري فقط حتى تريه من الداخل.

في الداخل كانت الجدران مغطاة بالمرايا واللوحات الفنية، وقد انتشرت في الأنحاء أشجار نخيل ضخمة موضوعة في أوانٍ كبيرة، أما السقف فكان من الحجر المعقود الذي بدا كأنه يمتد إلى ما لا نهاية، كما أن الجوّ كان مبرداً بمراوح قديمة الطراز.

لم تستطع صوفي مقاومة الرهبة التي تملكتها في هذا المكان المترف. وكان تيودور يتلوّى بين ذراعي أبيه، بينما كان لويس يتحدث بسرعة وبلغة إسبانية غير مفهومة إلى موظفة الاستعلامات، وقد وضع معدات الطفل عند قدميه. فهمست صوفي وهي تمدّ له ذراعيها:

- تعال يا تيودور. تعال إلى صوفي.

وامتلأ قلبها سروراً عندما راح الطفل يتلوى بين ذراعيها ثم يلتصق بصدرها. دفنت أنفها في شعره الحلو الرائحة واحتضنته بشدة، فأخذ الصبي يقهقه ضاحكاً وهو يعبث بشعرها.

وكان لويس يراقب المشهد الصغير بأكمله، وضاقت عيناه. لقد تأثر بالرغم عنه بطريقة معاملتها لابنه. بدت ردة فعلها نحوه غير زائفة. استطاع أن يلاحظ هذا بسهولة، ولو كانت كذلك لأحس الطفل بها بغريزته. فالأطفال يشعرون دوماً إذا ما كان العطف صادقاً. وحيّره هذا. لم يكن أمراً اعتيادياً بالنسبة إلى امرأة في مثل استقلاليتها، أن تنفق كل هذا الوقت والمشاعر والالتزام على طفل لن يكون أكثر من عارض سطحي في حياتها.

لماذا إذن؟ هل مجرد الحب والوفاء لأمه، قريبتها، هو الذي جعلها تتصرف بهذه الطريقة؟ أم أن لها دوافع أخرى؟ دافع خفي سيتضح مع الأيام؟ لكن الطفل ينتظره بسرور، فأومأ لويس. الوقت الآن ليس مناسباً للتساؤلات، التي قد لا تحدث أبداً. وقال برقة: «تعالي صوفي، سيأخذوننا إلى غرفنا».

وكانت الغرف أشبه بأجنحة منفرقة.

- هل كل هذا لي فقط؟

سألت صوفي وهي تقف على أرض غرفة بحجم قاعة رقص، وهي ما زالت تحمل تيودور بين ذراعيها، مقاومة دافعاً يدفعها إلى أن ترقص معه في أنحاء المكان.

- تبدين أشبه ببنت صغيرة.

تمتم بذلك وهو يرى سرورها البالغ وهي تنظر حولها.

- أنا أشعر فعلاً وكأنني بنت صغيرة أفلتت في دكان حلوى.

تصورها طفلة بضفيرتين. وكتم آهة عندما انحنت لتضع تيودور على

السجادة. وعلى الفور أخذ الصبي يتحرك ببطء. فسألت لويس: «أين سينام؟»

- طلبت منهم أن يضعوا سرير طفل في غرفتي هناك.

وأشار إلى باب في نهاية الغرفة.

فابتلعت ريقها: «الغرفتان متصلتان؟».

- إنه جناح عائلي. يوجد عادة باب بين الغرف

وتألقت عيناه بسخرية متحدية. «وهل يزعجك هذا؟».

إنه يزعجها بكل تأكيد. لويس في السرير على بعد ياردات منها. على الأقل، هناك في المزرعة، كان يفصل بينهما ممرّ طويل. كما أنها كانت تشعر بالطمأنينة لمعرفتها بأن سلفادورا وبيرو في نفس المنزل، كأنهما ومن دون وعي يمثلان دور الحارسين لها.

قابلت عينيه بنظرات تماثل نظراته برودة وسخرية «لا، على الإطلاق! ولِمَ أشعر بالانزعاج؟».

ارتسمت على جانبي فمه ابتسامة صغيرة. إنها تكذب، وهما الإثنان يعلمان ذلك. كيف ستتجاوب معه لو تحداها؟

لكن تيودور انطلق في أنحاء الغرفة بسرعة، واستطاعت صوفي أن تحدد عدة أشياء ينبغي أن ترفع من بين يديه المحبتين للاستطلاع.

حمل سلة القمامة في الوقت الذي أبعدت صوفي فيه علبة حلوى وضعت للترحيب بهم، قائلة وهي تضعها على سطح الخزانة: «أظننا سنفقد الحلوى يا... لويس».

- هممم...؟

كان ينظر إلى جسدها اللدن وحركاتها الرشيقة وهي تتطاول لكي تضع علبة الحلوى على الخزانة وكانت قد كومت شعرها فوق رأسها وثبتته بالدبابيس، تاركة عنقها الطويل عارياً لا تغطيه سوى بضع حصلات

حريرية شاردة. وتذكر لويس تلك الليلة التي دخل فيها إلى غرفتها، وكيف كان شعرها منسدلاً على صدرها، كتاً عسلي اللون.

استدارت حول نفسها، وغضنت أنفها وهي تحمل تيودور: «أظن أن تيودور بحاجة إلى تغيير حفاظه. هل تريدني أن أفعل هذا؟».

فقطب حاجبيه: «أتظنينني لا أحسن ذلك؟».

- لا أدري. هل يمكنك القيام بهذا؟ لاحظت أنك عادة تترك ذلك العمل لسلفادورا.

- لأنها تبدو سعيدة بالقيام بذلك.

- ربما لا يمكنها أن تتصور مشهد دون لويس دي لاكامارا يقوم بعمل كهذا، هذا العمل المختص بالنساء.

أضافت الجملة الأخيرة ساخرة.

- ولكن هل تظنين أنه من أعمال الرجال؟

- طبعاً أظن ذلك. يجب أن يشترك الأبوان في العناية بطفلهما. لا يمكنك أن تترك الأشياء الأقل بهجة للأم والأفضل لنفسك. وإلا كيف سيكون ارتباطك به سهلاً؟

وابتسمت له، مستمتعة بابتسامة الحيرة النادرة التي جعلته يبدو نائياً مرتبكاً: «أتحب أن أريك كيف تفعل ذلك؟».

تبددت الحيرة وحلّت مكانها نظرة غضب: «أنا لست بحاجة إلى دروس منك، صوفي».

- هل فعلت ذلك من قبل؟

لا، إنه لم يفعل ذلك من قبل، لكنه لا يعتقد أن تغيير الحفاظ صعب.

ولكن يبدو أن الأمر لم يكن بتلك السهولة التي تصورها. في هذا الوقت دخلت والدة لويس فوجدت ابنها راكعاً على الأرض، يحاول أن يضع حفاظاً لتيودور فيما الطفل يتململ. أما صوفي، التي جامدت حتى

الآن في كبت ضحكتها، فقد خسرت المعركة أخيراً وأخذت تضحك وتضحك: «أنت لا فائدة منك».

فصرخ: «لأجل الله!».

- لويس؟

فالتفت ليرى أمه بالباب وقد بانت التسلية على ملامحها الأنيقة

- مساء الخير، أمي.

جثمت صوفي إلى جانبه: «دعني أفعل هذا، واذهب أنت لترحب بأمك».

فنظر إليها بإحباط: «ستعلمينني فيما بعد».

ثم وقف فعانق أمه وقبلها على وجنتيها. سألته أمه بالإسبانية. «ألم تحضر سلفادورا معك؟».

فهز رأسه «إنها تكبر في السن. كما أن صوفي قالت إنه يفيدني أن أتحمل مسؤولية ابني وحدي».

- آه، هل قالت ذلك؟

سألته أمه ذلك وهي تنظر إليه متسائلة وفي هذه اللحظة كانت صوفي قد حملت تيودور وقد بدا راضياً قانعاً وقدمته إلى جدته التي أخذته على الفور وراحت تمطره بالقبلات على رأسه.

- يا صغيري الجميل الرائع!

كانت تهتف بذلك بينما تيودور يعبث بعقد اللآلىء الذي تضعه حول عنقها.

- إنه جميل أليس كذلك؟

قال لويس هذا باسماً ثم ابتدأ يتكلم بالإنكليزية: «أمي، أريد أن آخذ صوفي لتشتري ثوباً تلبسه في العرس...».

فابتسمت الأم: «وتريد أن تترك تيودور معي أليس كذلك؟».

- هل لديك مانع؟

- مانع؟ اتركه معي لمدة أسبوع إذا شئت. وحتى أكثر!

فنظر إلى ساعته «من الأفضل أن نذهب الآن إذا شئنا أن نكسب الوقت».

في الخارج أوقف سيارة أجرة، وأمر السائق أن يذهب بهما إلى منطقة «سلمنكا» حيث تقع أفضل متاجر المدينة.

- أتظن أن لدى أمك مانعاً في أن أكون هنا؟

سأله صوفي عندما انفتح باب المتجر: «أنت قلت إنها لا تمانع».

- لا لا أظن ذلك. ولماذا تمانع؟

- خيّل لي أنها نظرت إليّ بشيء من الاستغراب.

اشتبه لويس في أن تلك النظرة لها علاقة بما قاله عن نصيحة صوفي له بشأن ابنه.

- أظن أن السبب هو رؤيتها لابنها الأكبر راكعاً على ركبتيه يغيّر حفاظ ابنه تعالي الآن يا صوفي وأخبري البائعة عما تريدينه.

بدت الملابس من خارج هذا العالم لأناقتها فاحتارت صوفي بين ثوب أزرق حريري يصل إلى الكاحل مع معطف يلائمه يمكن ارتداؤه في الكنيسة، وثوب آخر رمادي اللون.

التفتت إلى البائعة: «لا أستطيع أن أختار بينهما».

فجاءها صوت لويس العميق الناعم: «استديري».

أخذت تدور ببطء شاعرة بعينيه تقيّمانها.

- خذي الأزرق فهو يناسب لون عينيك، كما أن الثوب محكم على جسدك تماماً.

قال هذا من دون اهتمام رغم أن حلقه جفّ لفرط مشاعره.

خرجت صوفي من غرفة تغيير الملابس فوجدت لويس يدفع ثمن

الثوب.

ـ ما الذي تفعله بحق الله؟

ـ ماذا ترينني أفعل يا عزيزتي؟

ـ أنا قادرة تماماً على شراء ملابس!

ـ لكن هذا مصروف غير متوقع. أنت لم تخططي لشراء ثوب غالي الثمن كهذا يا صوفي. هيا، دعيني أشتريه لك.

ـ لا، بكل تأكيد لا.

فلمعت عيناه: «لا تخافي، أستطيع دفع ثمنه».

ـ أعلم أن بإمكانك ذلك، وكذلك أنا.

وبكل تهذيب سحبت بطاقة الحساب العائدة إليه ووضعت بدلاً منها بطاقتها.

مضت لحظة مشحونة للغاية قبل أن يقول بنعومة: «أنت عنيدة جداً يا عزيزتي».

ـ وأنت أيضاً! ألم يحدث قط أن رفضت امرأة هدية منك؟

فسألها جاداً: «ولكن لماذا يرفضن، طالما أكون أنا مسروراً بمنح الهدية؟».

حدّقت صوفي إليه. ألم يصادف قط امرأة تعتبر نفسها مساوية له؟

ـ هناك شيء اسمه الكبرياء، لويس.

قالت هذا بهدوء.

ـ كبرياء!

ومنحها شبه ابتسامة ساخرة.

هذه كلمة لا يمكنه أن يقرنها بالنساء اللواتي عرفهن في حياته... النساء يرغبن به... دوماً كن يرغبن به. وهكذا فالهدية منه تمثل لهن رمزاً لأهميتهن، فلماذا تنظر صوفي ميلز بمثل هذا الاحتقار والترفع؟

عندما ابتعدت البائعة لتلف الثوب، سأل صوفي «لماذا ترفضينه؟».

ـ لأنه يجعلني أشعر وكأنني عالة على الرجل.

أدرك بأن هذا ليس الوقت المناسب ليقول لها إن المرأة تعتبر «عالة» على الرجل عندما تمنحه ما يريده مقابل هداياه. فمع تلك النظرة المتمردة على وجهها، لا يمكنه الوثوق بأنها لن تمنحه صفعة رنانة وسط المتجر.

هزّ كتفيه بفروغ صبر: «حسناً جداً. يمكنك أن تدفعي ثمنه إن شئت».

فردت عليه متهكمة: «شكراً جزيلاً. سأفعل ذلك بالتأكيد».

تلهف إلى أن يقهرها بطريقة تجعلها تقبل هديته وهي تتنهد... أما أن ترفض هديته بهذا الشكل أمام البائعة! إنها تتحدث عن الكبرياء... ألم تر أنها جرحت كبرياءه ورجولته برفضها هذا؟

جلس في السيارة في رحلة العودة إلى الفندق بهدوء إلا أنه كان يغلي غضباً. تنهدت صوفي وهي تنظر إلى جانب وجهه الحاقد: «إذا كنت ستصبح في مزاج سيء بقية النهار...».

فسألها بمرح: «ولماذا أكون في مزاج سيء بقية النهار؟».

ـ لأنك لم تحصل على ما تريد! ظننت أننا لن نقوم بإدانة بعضنا البعض أثناء هذه الرحلة على الإطلاق، وهكذا عليك أن تتقبل استقلاليتي بروح مرحة، أليس كذلك، لويس؟

حدّق في عينيها فرأى لمعان التسلية فيهما، فتنهد: «لا بأس، يا صوفي العنيدة. لقد انتهى الموضوع وأصبح منسياً. والآن عودي إلى جلستك واستمتعي بمناظر المدينة».

***

٧ ـ حلم لن يتحقق

لم يتبق لصوفي سوى وقت قصير لكي تغتسل وترتدي ثيابها استعداداً لحضور العرس. كانت قد فرغت لتوها من وضع أحمر الشفاه عندما قرع لويس الباب: «صوفي، هل أنت جاهزة؟»

ألقت نظرة أخيرة إلى المرآة، ثم أومأت. ستنجح! عليها أن تنجح: «نعم. أدخل».

دخل لويس حاملاً تيودور. جمد في مكانه ما إن ألقى عليها النظرة الأولى. وضاقت عيناه، فبدا كقط الأدغال حين يعثر على دليل يشير إلى أن عدواً قد غزا وكره.

ابتلعت صوفي ريقها ورفعت أصابعها إلى وجهها تتلمسه. أتراها نسيت وضع زينة معينة؟ الكحل مثلاً؟ أم ربما لطخت وجنتها بالماسكارا؟ وسألته: «هل من خطأ؟».

خطأ؟ يا الله! ما هذا الجمال الذي تبدو عليه؟

شعر لويس بالنبض يخفق بشدة في صدغه. وهز رأسه: «أنت تضعين زينة على وجهك».

ـ طبعاً، أنا أضع زينة على وجهي. فأنا سأجلس إلى جانب جميلات الطبقة الأرستقراطية في إسبانيا، وعليّ أن أبدو في أحسن مظهر.

ـ لكنك لا تعبئين عادة بذلك.

ـ أعلم ذلك. لكن في المناسبات فقط. أرى من الجنون أن أمضي

دهوراً في طلاء وجهي، لكي أعود فأغسله بعد ذلك.

رقة ملامحها وعيناها الزرقاوان الواسعتان تدل أنها، خلافاً لأكثر النساء، يمكنها أن تبدو جميلة مع وجه نظيف بدون زينة. أما مع زينة..

وتنفس بشوق... إنها تبدو رائعة!

بدت عيناها واسعتين وقد أبرز الكحل شكلهما الدائري. بينما جعلت حمرة الشفاه اللامعة فمها مكوّراً مثيراً. وكانت بشرتها تلمع بلون ذهبي خفيف وتبدو ناعمة كالحرير.

أما الثوب...

لم تستطع لويس أن يبعد عينيه عنه... كان القماش الحريري ملتصقاً بجسمها مبرزاً رشاقتها. لو أنها ليست صوفي، لربما اقترح عليها بنعومة أن تسدل شعرها إلى الأسفل، لكن ذلك ليس بمقدوره على الإطلاق.

ـ تبدين رائعة الجمال إلى حد بالغ، عزيزتي.

كذلك بدا لويس. إذا كانت كلمة «جميل» تنطبق على مثل هذا الرجل الطافح بالرجولة، فهو يبدو بالغ الجمال. لأن الجمال يمكن أن يكون نحافة ونحولاً وضموراً وصلابة، بقدر ما يكون نعومة وزينة.

لم تستطع أن تمنع نظراتها من التملي من مظهره، فالسترة الرسمية السوداء تبرز جسمه الضامر، كما تلفت النظر إلى طول ساقيه وضيق وركيه. لا بد أنه حلق ذقنه لتوّه لأنها، وللمرة الأولى، لم تر ذلك الظل الخفيف الأسود على خديه. وكان شعره الكث الأسود يلمع بقطرات ضئيلة من الماء بقيت بعد الدوش.

بذلت صوفي جهداً خارقاً لتتمكن من تحويل نظراتها عنه إلى تيودور الذي كان يتألق ببذلة بحار بيضاء كالثلج مزينة بشرائط كحلية اللون. وهمست: «وأنت تبدو رائعاً للغاية، يا تيودور. يا لك من صبي جميل!».

أخذ تيودور يهدل كالحمام. وفجأة بدت الغرفة الفسيحة صغيرة

للغاية، وتمنى لويس لو أنهما وحدهما ليأخذها بين ذراعيه. وابتلع ريقه: «هيا، فلنخرج».

كانت سيارة في انتظارهم فأقلتهم إلى كنيسة أثرية مليئة بالأزهار. شعرت صوفي بالأعين الفضولية تتفحصهم وهم يتقدمون إلى الصفوف الأمامية لكي يجلسوا مع بقية أفراد الأسرة. هل خيّل إليها أنها تسمع، أم أنها سمعت فعلاً أصواتاً تهمس بالإسبانية عندما دخلوا الكنيسة؟ أتراهم يتساءلون عمن تكون هذه المرأة الشقراء التي ترافق الدون وابنه الطفل؟

كان الاحتفال شاعرياً، هكذا يفترض أن تكون الأعراس، ما عدا عرس ميراندا، كما أدركت صوفي فجأة. زواج مدني لا لون له. فقد تمت مراسم زواجها ذات يوم صيفي حار، في مكتب، وقد بدت ميراندا يومها شاحبة متلهفة لأنها كانت في الفترة الأولى من حملها. ومع ذلك بدت في صوتها نبرة انتصار واضحة وهي تقسم اليمين. أما لويس فلم تبد عليه الحماسة مع أنه تصرف بشكل لائق. أما هنا! فقد ظهر في صوت العروس رجفة مؤثرة وهي تلفظ عهودها الزوجية، كما ظهرت في عيني عريسها نظرة حب خطفت أنفاس صوفي وأشعرتها بنوع من الحسد. أدركت أن هذا ما تريده هي أيضاً، عندما تتزوج. تريد رجلاً يحبها مثل هذا الحب العنيف، إنها تريد حباً حقيقياً ودائماً، ذلك النوع من الحب الذي يزعزع الجبال.

فكرت أن الرجل الذي يقف إلى جانبها لن يمنحها ذلك أبداً، ولو بعد مليون سنة.

نظرت إلى تيودور الذي بدا هادئاً بشكل مدهش يمتص إبهامه بينما المنشدون يغنون بعض الألحان الكنسية. إنه يعتاد عليها يوماً بعد يوم، نعم. حتى إنه بدأ يحبها. ولكن كم سيلزمها من الوقت لتجعل لويس يثق بها إلى حد يسمح له أن يسلمها الطفل لتأخذه إلى إنكلترا؟

عليها أن تتحدث معه في هذا الشأن، وقريباً جداً، كما قررت وهي تقف لنيل المباركة النهائية.

أقيمت حفلة الاستقبال الراقصة في قاعة الرقص في الفندق. وكانت أكثر المناسبات التي حضرتها صوفي في حياتها، جوداً وإسرافاً. وقد زينت القاعة بالزنابق البيضاء. كان تيودور يتنقل من قريب إلى آخر بينما راح لويس يقدم صوفي إلى عماته وخالاته وأبناء عمومته وأخواله.

بدا الفضول واضحاً في نظراتهم، لكنهم لم يلقوا أية أسئلة بالنسبة إلى وجودها. وافترضت هي أن الأرستقراطيين يحافظون على المظاهر في أحاديثهم، فلا يعبرون عن تساؤلاتهم بشأن الآخرين.

لكن، بمَ كان يفكر لويس فيما الجميلات يتناوبن على لفت انتباهه؟ لم تبد عليه الحماسة وإنما بدا على شيء من التساهل عندما أخذت النساء، الواحدة تلو الأخرى، يحاولن الاستئثار به.

ثم صدحت الموسيقى تدعو الناس إلى حلبة الرقص، العريس والعروس، والديهما، أبناء العمومة والأخوال... وراح عم متوسط في السن يدور بتيودور في أنحاء القاعة. لاحظت صوفي أن إسبانية شابة بالغة الرقة راحت تنظر إلى لويس بخجل وشوق. أومأ برأسه بشكل تلقائي تقريباً، وهو يأخذها بين ذراعيه.

وتمتمت إحدى عمات لويس بالإنكليزية وهما يمران من أمامها راقصين: «يا لهما من راقصين جميلين!».

تمتمت صوفي موافقة: «إنهما كذلك، حقاً!».

لكن قلبها راح يخفق بسرعة ولعنت وخزة الغيرة التي شعرت بها. إنه ليس رجلها لكي تغار عليه. هزت رأسها لضعفها هذا، ثم سارت تحضر لنفسها كأس ماء.

تمنت لو تكون زهرة على جدار على أن تقف هناك لتراقب لويس وهو

يرقص برشاقة لا مبالية مع مجموعة من النساء يتلهفن على الرقص بين ذراعيه.

جلست على إحدى الكراسي خلف نخلة عريضة موضوعة في إناء وما هي إلا دقائق حتى سمعت صوته العميق يخترق أفكارها، فشعرت بنفسها ترتجف: «صوفي؟».

رفعت بصرها إليه فأدارت رأسها نظرته المتأملة. ثم سألها برقة «لماذا تختبئين هنا؟».

فقالت بابتسامة مرغمة: «لم أختبىء بشكل جيد، لأنك عثرت عليّ بسهولة».

جلس على كرسي بجانبها: «هل كانت هذه نيتك صوفي؟ أن تختبئي مني؟».

تساءلت عما سيقوله لو أخبرته بالحقيقة: أنه يؤلمها في الواقع، أن ترى امرأة أخرى بين ذراعيه.

فقالت كاذبة: «أردت أن أريح قدميّ».

ـ والآن بعد أن أرحتهما...

وسمح لنظراته بأن تنتقل إلى حيث الحذاء الصغير المثير يحتضن كاحلين بالغي الرقة. لم تكن ترتدي جوربين، إلا أن بشرة قدميها بدت ناعمة كالحرير.

ـ هل سترقصين معي؟

ـ لا لا أظنها فكرة حسنة.

ـ أوه؟

ـ قد ينظر إلينا الآخرون باستغراب... كما أن ليس لدي رغبة في أن أحتكرك لنفسي. هيا يا لويس! هناك عدد كبير من النساء هنا يتلهفن إلى الرقص معك.

ـ لكنني أطلب ذلك منك أنت، صوفي. وسيظن الناس الأمر غريباً إذا لم يرقص «الدون» مع ضيفته هنا. هيا بنا يا صوفي. إنها أمنيتي. وإذا كنت لا ترغبين...

وابتسم وصوته يتمهل عمداً عند هذه الكلمة: «... بإن تكوني فظة خشنة، شرفيني إذن بالرقص معي».

لم يطلب منها الرقص أحد قط من قبل بمثل هذه الطريقة التي لا يمكن مقاومتها. ولكن، من ناحية أخرى، لم يطلب منها الرقص قط رجل لا يمكن مقاومته، مثل لويس هذا.

إنه مجرد تهذيب، ذكّرت نفسها وهو يجرّها بين ذراعيه... مجرد تهذيب.

ولكن آه، كان الواقع مختلفاً إلى حد مؤلم. إحساسها وهي بين ذراعيه، ويداه مرتاحتان بخفة على جسمها، بدا ممتعاً للغاية ما جعلها لا تستطيع التنفس.

شدّها إليه، وعلى الفور أفعمت خياشيمه رائحة الليلك. كانت أصابعه على خصرها بشكل متملك. وجعلها ثوبها الرقيق تشعر بلمساته بقوة.

كان لويس يراقب ردة فعلها ويرى تمدد عدستيّ عينيها وهي تشعر بمبلغ مشاعره نحوها.

وقالت بضعف: «لويس».

ـ نعم، عزيزتي. ألا يعجبك الرقص معي؟

أعجبها ذلك أكثر مما كانت تتصور، ولكن أليس في ذلك تعذيباً لها إلى حد لا يُطاق؟ هل يعلم ما يفعله بها؟ راح لويس يتحرك بشكل رائع بدون أن يشعر بأي خجل.

ـ أنت ترقصين بشكل جيد.

www.elromancia.com

ابتلعت صوفي ريقها، راجية أن تبدّد مشاعرها. أما هو فكبح آهة إحباط. هذا العذاب الحلو..

أدركت صوفي أنها بدأت تهتم به. وبشكل عميق جداً... أرادت أن ترى أعماق عقله السريع الذكي. أن ترى بنفسها ما الذي جعل لويس دي لاكامارا شخصاً مثيراً للاهتمام إلى هذا الحد؟

ولكن مثل هذه الرغبة لن تفيدها بشيء. ذلك أن لديه صديقة، كما أخذت تذكّر نفسها بألم. كلما طال بقاؤها، كلما زاد احتمال وقوعها كلياً تحت سحره، وهي تدرك أن لا مستقبل لهما معاً على الإطلاق. هل يمكنها احتمال ذلك؟

لا. لن يمكنها ذلك! لقد حان الوقت لتتركه. وكلما أسرعت بذلك كلما كان هذا أفضل.

قالت وهي ترتجف: «لقد اكتفيت من الرقص».

ترك لويس يديه تسقطان من خصرها، ثم قال بفتور: «سنبحث عن تيودور».

أدركت أنه لم يعد بإمكانها إرجاء ما عليها أن تخبره به.

وعندما عادا إلى غرفتيهما، ووضعا تيودور الذي كان متعباً ولكن سعيداً، في سريره قرعت بابه بخفة.

كان لويس على وشك أن يخلع قميصه، محاولاً أن يتخلص من ألم الإحباط العميق الذي لم يفارقه طوال السهرة.

- أدخل.

انفتح الباب، فالتفت ليرى صوفي تقف في الباب. انحبست أنفاسه في حلقه. كان شعرها مرسلاً حول كتفيها. وضاقت عيناه. ألا تدرك الخطر الذي أوقعت نفسها فيه؟ لا شك أنها غير واعية أن الضوء الذي ينساب من الممر، يظهر بوضوح ساقيها الطويلتين الرشيقتين.

جاء صوته غليظاً بشكل غير عادي: «نعم؟».

وقفت عند العتبة مترددة. أن تراه وهو على وشك أن يخلع ثيابه هو شيء حميم. حميم للغاية... كيف يمكنها أن تتكلم والكلمات عالقة في حلقها؟ كيف يمكنها ذلك؟

- هل يمكنني... هل يمكنني أن أتحدث إليك لحظة؟

نظر إلى الطفل النائم، ثم أومأ. حتى ولو كانت الكلمات التي ستقال سترسل في ذهنه كل أنواع التخيّلات: «لنتكلم في غرفتك أنت كيلا ينزعج نوم تيودور».

أومأت وقلبها يخفق بين أضلعها بينما هو يتبعها إلى غرفتها. كان الأمر أشبه بحلم يتحقق، ما عدا أن هذا لن يتحقق... فلن يكون بينهما أكثر من حديث واقعي كان عليهما إجراؤه منذ وقت طويل. كاد لويس يجن وهو يراها تسير أمامه. وعرف عندئذ أنه لن يستطيع النوم... ولن يستطيع القيام بشيء إذا هو لم يفعل هذا...

- لويس!

صرخت فجأة عندما أمسك بها من الخلف ثم أدارها إليه لتواجهه: «... ما الذي تفعله؟».

فأجاب بتوتر: «أفعل ما أردنا، نحن الإثنان، طوال السهرة أن نفعله».

- أنت وعدتني بأنك...

- وعدتك بأن لا أعانقك أثناء الغضب. لكنني لست غاضباً الآن، وكذلك أنت. فأنا لا أرى الآن سوى دعوة حلوة في عينيك. وماذا أكون بين الرجال إذا أنا تجاهلت هذه الرسالة الحلوة الصامتة؟

حدثت نفسها بأن ذلك لا يعني شيئاً. إنه مجرد عناق وهذا كل شيء... لا شيء يمنعها من الإستسلام إلى المشاعر المحمومة التي تتدفق من عينيه.

تعلقت به بضعف بينما أطال عناقه، ما جعلها تزداد ذوباناً. وتأوه وهو يشدّها إلى صدره فكادت ركبتاها تنثنيان.

ـ آه... صوفي!

في مكان ما من أعماقها، انطلق صوت يحذرها بمنطق هادىء وكأنما دلو من الماء المثلوج قد أفرغ فوق رأسها. كيف أمكنها أن تنسى أن هذا الرجل النائي البارد القلب هو رجل عابث، وهو الذي جعل حياة ميراندا تعيسة؟

أبعدته عنها، فظهر الإحباط العابس على وجهه وتساءلت عما إذا كانت تبدو مثله.

شهقت قائلة: «هل غيابك عن أليخاندرا عدة أيام يجعلك متشوقاً إلى بديلة لها؟ فإذا لم تكن قريبة منك فإن أي امرأة يمكنها أن تسدّ مكانها؟»

هزّ رأسه بنفاد صبر: «أليخاندرا لم تعد صديقتي!»

ـ منذ متى؟ منذ الآن؟ لقد ذهبت لرؤيتها ليلة الجنازة. من المؤكد أنك لم تنس ذلك.

فقال وهو يصر بأسنانه: «لكن لم يحصل بيننا شيء يومها».

ـ لماذا اندفعت إذن لرؤيتها؟ هل لتلعب معها النرد؟

شتم بغضب وهو يقول: «ذهبت لأرى أليخاندرا لأنني أدركت أن علاقتنا انتهت».

فقالت بجفاء: «توقيت مناسب».

ـ ليس تماماً. الموت برغم الإنسان على مواجهة الحقيقة. والحقيقة هي أن أليخاندرا تطلب أكثر مما أنا مستعد لأن أعطيها إياه بكثير.

فسألته بصوت غير ثابت: «وما هو ذاك؟».

فتنهد: «لم تكن علاقتنا تعني أكثر من ذلك... لكنها ظنت خطأ بأنني... أصبحت الآن حراً، لذا لم تعد هناك عقبة في طريقنا. وأن علينا

أن نعيش معاً بكل معنى الكلمة».

ـ هل أرادت أن تتزوجك؟

فابتسم ابتسامة غريبة وقال بنعومة: أليخاندرا امرأة عقلانية يا صوفي. لم تأت على ذكر الزواج، ولكن، نعم، أعتقد أن هذه كانت نيتها الحقيقية».

إذن هذا ما جعله ينبذها. لأنها كانت كثيرة الطلبات. ولويس ليس من نوع الرجال الذي يمكنه التعامل مع الطلبات العاطفية.

شعرت بالغضب يغلي في داخلها ببطء. هل هذه هي الطريقة التي يعامل بها نساءه؟ ينبذهن عندما يطالبنه بأكثر من دور صغير محدود في حياته؟

وها هوذا الآن يحاول إغراءها بينما هي، الغبية الحمقاء، أوشكت على الوقوع في الفخ.

عليها أن تخرج وتخرج الآن! فقالت له ببرودة الثلج: «أنت أهنتني بمحاولتك إغرائي. أنت تعامل النساء كأنهن مواطنات من الدرجة الثانية! سأعود إلى إنكلترا يا لويس وأريد أن آخذ تيودور معي!».

* * *

٨ ـ من أجل تيودور

ضاقت عينا لويس وقد تلاشت كل رغبة محبطة شعر بها نحوها بسبب قولها هذا.

وقال بلهجة خطيرة: «قولي ذلك مرة أخرى».

ـ أريد أن أعود إلى إنكلترا مع تيودور. جدتي تتمنى أن تراه.

فقال بحدة: «لن تأخذي تيودور إلى أي مكان».

ـ أنا لا أعني بصورة دائمة...

فقال بغضب: «حتى الصورة المؤقتة ليست خياراً يُنظر بأمره. كيف تجرؤين على طلب ذلك؟».

آه، يا إلهي... لماذا طلبت منه ذلك بمثل هذه الصفاقة وعدم اللباقة؟

ـ أرجوك يا لويس...

لكن قلبه بدا متحجراً إزاء التوسل في عينيها. لقد حدّثته غريزته بأن لا يثق بها، لكنه ترك رغبته تملي عليه عدم الحذر «أي نوع من الحمقى أنت يا صوفي لكي تظني أنني قد أسمح لك بأن تنقلي ابني من وطنه؟ هل في نيتك أن تبقيه هناك؟ أن تطالبي بالوصاية عليه؟ هل هذا هو الأمر؟ هل هذه كانت خطتك من البداية؟».

ـ لا. طبعاً لم تكن هذه خطتي!

ـ كلمة طبعاً هذه لن تخدعني. نحن الإثنان نعرف مدى صعوبة انتقال

طفل إلى بلاد أخرى. لا بد أنك مجنونة إذا كنت تظنين أنني سأوافق على مشروع كهذا!!

ربما هي كذلك! مجنونة إلى حد يتنافى مع مصلحتها. منذ دقائق كانت مستسلمة لعناق هذا الرجل الذي بإمكانه أن يحطم قلبها. وبدلاً من أن تلتمس منه الرحمة... فتشرح له رجاء جدتها، إذا بها تعلن له ما بدا طلباً غير منطقي.

هل تصورت أنه سيسمح لها بأن تصعد إلى الطائرة مع ابنه الغالي، لمجرد أنه تصرف كمرافق لطيف خلال الأيام الماضية؟

ـ إسمع، ربما أنا لم أحسن القول...

ـ ربما لم تحسنيه، لكنك كنت صادقة على الأقل. هل هذا هو السبب في إظهارك الحلاوة واللطف مؤخراً... لكي تغريني فأقبل بطلبك؟ ألهذا كنت تتمايلين بهذا الشكل الرائع أثناء رقصنا الليلة معاً؟ فكرت أن إغراءك لي، يجعلك تحصلين على ما تريدينه بالضبط؟ لكنك في آخر لحظة لم تستطيعي أن ترغمي نفسك على متابعة ذلك. مهما كانت رغبتك قوية في وضع يدك على تيودور؟

ـ لويس! ما تقوله غير صحيح!

ـ آه، بل إنه صحيح. فأنت لم تخفي شعورك نحوي... كنت فقط من البراعة في التمثيل بحيث جعلتني أعتقد ذلك لفترة محدودة.

ولمعت عيناه غضباً: «وربما هذا هو سبب معاملتك الجيدة لابني».

جرحها قوله هذا أكثر من أي شيء آخر قاله حتى الآن: «هل... هل تظن حقاً أنني كنت أحتال على ابنك لأجل مصلحتي؟».

ـ وما أدراني بحق الله؟

فحاولت للمرة الأخيرة: «لويس، أرجوك...».

ـ آه، وفّري توسلاتك!

حدّقت إليه... إلى هذا الغريب الأسود العينين الذي لا تكاد تميّز فيه ذلك الرجل الذي كان قد عانقها لتوه بكل تلك الحلاوة والمشاعر المحمومة: «هل... هذا هو جوابك النهائي؟».

فقال بخشونة: «نعم».

- إذن، لا شيء يقال أكثر من ذلك؟

- لا. ولا كلمة واحدة.

قال هذا بشدة وهو يحدّق في عينيها لآخر مرة، ثم زمّ شفتيه بشدة، واستدار ليغادر الغرفة من دون كلمة أخرى.

تقلبت صوفي كثيراً في فراشها قبل أن تتمكن من النوم. وفي الصباح التالي استيقظت متأخرة لتجد أن لويس قد سبقها وارتدى ملابسه، ثم ترك لها ملاحظة مختصرة تقول إنه أنزل تيودور معه إلى الطابق الأسفل ليتناول فطوره.

اغتسلت وارتدت ملابسها، ثم نزلت إلى غرفة الطعام، فرأته جالساً في آخر الغرفة حاني الرأس باسم الفم وهو يطعم ابنه. ويبدو أنه سمع وقع خطواتها، فقد رفع بصره حين اقتربت وإذا بقسمات وجهه تغدو قاسية متحجرة: «تفضلي بالجلوس يا صوفي. هل نمت جيداً؟».

كان لمعان عينيه يناقض تهذيب كلماته.

- لم أنم جيداً في الحقيقة. وأنت؟

ظل لويس يغلي غضباً طيلة الليل. أقلق تفكيره أنه أساء الحكم عليها، وسمح لها بإغوائه. تجاهل سؤالها، وسألها ساخراً: «هل جواز سفرك معك؟».

فسألته باستغراب: «جواز سفري؟ نعم. إنه في حقيبة يدي في الغرفة».

- هذا حسن.

أشار إلى طبق الفاكهة الطازجة والحلوى وهو يلقم ابنه الطعام «أقترح أن تتناولي فطورك»

ساورها شعورها مثبّط بالنسبة إلى هذا الرجل الذي لا يقبل التهدئة. «لا أريد فطوراً»

كل ما أرادت معرفته هو لماذا يسألها عن جواز السفر.

فهز كتفيه: «فليكن! ستأكلين في الطائرة».

- الطائرة؟ أية طائرة؟ ما الذي تتحدث عنه؟

- الطائرة التي ستعيدك إلى وطنك لقد اتصلت بشركة الطيران هناك رحلة من مدريد إلى لندن في وقت متأخر من هذا الصباح. وأظنك ستوافقين أن لا فائدة من عودتك إلى «لاريوجا» الآن.

قال ذلك بابتسامة باردة. إنه يبعدها وكأنها ليست أكثر من طرد بريدي غير مرغوب فيه

- ولكن ماذا عن أمتعتي؟

- سترسل إليك لاحقاً.

- أبهذا الشكل؟

فقال ببرودة: «بهذا الشكل».

فتحت فمها لكي تجادله، لكن النظرة التي ظهرت في عينيه أنبأتها بأن لا فائدة من ذلك.

لويس دي لاكامارا لا يعرف التساهل في هذه الأمور... وفي كل شيء إنه على حق، فقد تصرفت بحماقة. تركته يقترب منها... ويقترب إلى درجة خطرة... ثم نسفت كل شيء... أفشت كل نواياها في حالة غضب وإحباط وألم، فجعلته يظن بها الأسوأ. ولكن لم يخطر ببالها أن يظن لويس أنها تريد أن تخطف ابنه منه، هاربة به.

العنف الذي بدا في ملامحه أكّد لها أنه يعتقد ذلك حقاً، وأن مثل هذه

الجريمة لن تقبل الصفح أو النسيان.

إلا أن أكثر ما أثار فيها الألم إعلامه أنه لن يرافقها إلى المطار: «أنا سأمضي الصباح هنا في المدينة مع أمي وتيودور».

- آه، آه، فهمت.

- وهكذا سأقول لك وداعاً الآن.

أومأت وهي لا تكاد تستطيع الكلام. لكنه سمح لها بأن تعانق تيودور لآخر مرة.

- الوداع يا حبيبي.

همست بين خصلات شعره الأسود وهي تتساءل عما إذا كانت سترآه قط بعد الآن.

بعد قليل كانت السيارة تنتظرها خارج الفندق في أشعة الشمس الدافئة، لتقلها إلى مطار «باراجاز».

حجز لها لويس مقعداً في الدرجة الأولى. لكن ذلك لم يكن يختلف بالنسبة إلى صوفي عن عربة لشحن المواشي، بسبب الاضطراب والسوء اللذين كانت تشعر بهما.

وعندما هبطت بها الطائرة في إنكلترا، في ذلك النهار الممطر البارد، شعرت في وطنها وكأنها أجنبية.

وجدت طناً من الرسائل في جهاز الإجابة في تليفونها، ورزمة كبيرة من الرسائل البريدية، وبعد فترة قصيرة اتصلت بجدتها: «لقد عدت يا جدتي».

- وتيودور؟

- آه...

أوشكت أن تقول (إنتظري حتى تريه) لكنها كبحت الكلمات: «إنه... جميل... جميل تماماً. لقد التقطت له ملايين الصور لأجلك

وسأحضرها إليك حالما يتم طبعها».

ساد صمت قصير: «لكنك لم تحضريه معك».

- كلا.

- أظن لويس رفض ذلك.

- نعم مع الأسف.

- هذا ما ظننته.

وتنهدت الجدة. وسمعت صوفي نبرة الحزن في صوتها فتساءلت هل كان عليها أن تجاهد لإحضاره أكثر مما فعلت!

عادت صوفي إلى نظام عملها المعتاد بصعوبة. فكانت تركض لتدرك القطار، وتذهب أيام الجمعة إلى الأماكن الشعبية الصاخبة، أما الآحاد فتمضيها في السوق وزيارة المعارض الفنية. لكنها افتقدت تيودور أكثر مما كانت تتصور؛ افتقدت عبثه في مياه حمامه الدافئة، حكايات ما قبل النوم، رائحته الحلوة، ضحكاته وهي تدغدغه، وذراعاه الممتلئتان عندما كانت تعلمه السباحة.

حياتها في لندن كانت تختلف تماماً عن الحياة التي تركتها لتوّها خلفها. افتقدت شمس إسبانيا الدافئة ورائحة الليمون الذي يتدلى من الأشجار.

كما أنها... افتقدت لويس أيضاً. ما أغرب ذلك! حتى كأن شيئاً أساسياً في حياتها قد انسلخ عنها، تاركاً إياها في فراغ وألم... وشوق لسماع صوته بلكنته الناعمة، ورؤية لمعان عينيه السوداوين الغريب.

آلاف الأميال تبعدها عنه. بدا لها من السهل تجاهل صوت المنطق الذي يصرّ عليه عقلها، لتستمع بدلاً من ذلك إلى صوت قلبها وضرباته المتلاحقة.

بُعد الوقت والمسافة جعلا ذاكرتها تقوم بانتقاء أحداث ومواقف

محددة وتقوم بتحليلها.

أثناء وجودها في إسبانيا حدث شيء ما. ولم يكن مقتصراً على الجاذبية الجسدية فقط، فهذه كانت دوماً موجودة. وقد قمعتها بقسوة عندما كانت ميراندا ما تزال حية.

فكرت أن من المستحيل عليها أن تكون منيعة إزاء لويس... ذلك الرجل الذي لا يشبه مطلقاً الزوج الذي وصفته ميراندا.

إنه لويس الذي عرفته هي في إسبانيا؛ الأب المحب، الرفيق الذكي الممتع... هل يكون هذا كافياً لكي تقع في حبه؟ شعرت من الألم ما لا يشعر به سوى الذين يقعون في حب شخص لا يبادلهم الحب.

لم تعرف مثل هذه المعاناة قط من قبل. شعرت وكأنها امرأة تغرق، وهي تحاول بيأس أن تتمسك بصخرة زلقة لا تمنحها الخلاص. حتى كأن عالمها القديم لم يعد موجوداً، وكأنها امرأة غريبة والناس الذين يحيطون بها هم مجرد أشباح يتحركون فيما يشبه الظلال.

أرسلت إلى تيودور كتاباً وبطاقتين بريديتين من لندن، قائلة فيهما إنها ترجو أن تراه مرة أخرى وفي وقت قريب. إلا أنها تساءلت في أعماقها، عما إذا كان لويس سيعطيه البطاقتين.

أرجو ذلك يا الله! ربما كان لا يثق بدوافعها، ولكن، بالرغم من كلماته الغاضبة حينذاك، من المؤكد أنه لا يشك في حبها الحقيقي لابنه.

وذات مساء، وبعد أن أوشكت صوفي على فقدان الأمل، تلقت اتصالاً هاتفياً. يومها وصلت إلى بيتها متأخرة، بعد يوم عمل شاق ولكن ناجح، في مكتبها. كانت هي وليام قد أمضيا الأسبوع يعملان معاً في أكبر صفقة في حياتهما، إذ استلما الإعلانات في شركة سيارات، وعلى الأخص لآخر طراز من السيارات الرياضية.

تملكها الذهول عندما حصلا على الصفقة، ومعها عقد بعدة ملايين

من الجنيهات.

واقترح ليام أن يذهبوا لتناول العشاء والاحتفال. لكن صوفي ادعت بأنها تعاني من الصداع، فهي لا تستطيع أن تخبر زملاءها في العمل بأن قلبها يتألم إلى حد تخاف معه أن تفسد احتفالهم.

وسألها ليام عابساً: «هل أنت بخير؟».

ـ طبعاً أنا بخير...

وكان هذا كذباً: «... فأنا سأصبح امرأة غنية جداً».

ولكن ما قيمة المال... ما قيمة أي شيء في الحقيقة، إذا لم يستطع الإنسان أن يحصل على الشخص الذي يريده أكثر من أي شيء آخر في الحياة؟

ما الذي حدث لها؟ سيدة الأعمال الهادئة الناجحة تحوّلت إلى امرأة تتشوّق إلى مباهج حياة الأسرة اليومية. وليس أي أسرة... فقد كان هناك أسرة جاهزة، فيها مكان شاغر لزوجة وأم.

لكن هذا لم يكن معروضاً، لم يكن معروضاً بكل تأكيد.

ورفعت سماعة الهاتف.

ـ صوفي؟

كادت السماعة تسقط من يدها. وهمست: «لويس».

ـ طبعاً.

سادت فترة صمت استراح هو بعدها، فقد تخيّل أنها ستقفل الهاتف في وجهه. ألم يكن يستحق ذلك؟ ورقّ صوته: «أتريدينني أن أحضر إليك تيودور لكي يرى جدته؟».

أغمضت عينيها بشدّة: «آه، لويس، أحقاً؟ صدقاً؟ هل تعني ذلك؟».

ـ طبعاً أعنيه.

وتنهد. لم تكن كلمة آسف سهلة عليه: «صوفي، كنت أعمى.

متهوّراً بالنسبة إلى إحساسك بالواجب. ما كان لي أن أقول لك تلك الأشياء التي قلتها. بعد رحيلك أدركت أن طلبك لم يكن غير معقول...».

ـ ما كان لي قط أن أقترح أخذه بمفردي.

ولكن كيف كان لها أن تطلب من لويس أن يصحبها إلى إنكلترا؟

فقال بهدوء: «لا. ما كان لك أن تفعلي هذا. ولكن ذلك الأمر انتهى الآن. هل أحضر أنا؟».

ـ متى؟

اللهفة إلى رؤيتها قد دمّرته: «خلال هذه العطلة الأسبوعية؟».

شعرت كأن الله قد استجاب لدعائها. لكنها ذكرت نفسها أن لويس يؤدي واجبه كأب فقط، من دون أن يقدّم أكثر من هذا. حتى لو كانت علاقته مع أليخاندرا قد انتهت، فهناك نساء أخريات على استعداد لأخذ مكانها. بعض النساء الإسبانيات الرائعات الجمال هن شريكات ملائمات له أكثر بكثير من ابنة خالة زوجته الإنكليزية الراحلة.

ـ سأقابلك في المطار.

قالت هذا بصوت مرتجف وهي تضع السماعة. ثم اتصلت بجدتها وقالت بصوت مرتجف: «جدتي، هل تحبين أن تري حفيدك خلال العطلة الأسبوعية؟».

صباح السبت راحت أصابعها ترتجف إلى حد لم تكد تستطيع معه إقفال ثوبها. ثم مرّت الدقائق كالساعات حتى اللحظة التي هبطت فيها طائرة لويس على أرض المطار.

جاء لويس إلى صالون الواصلين حاملاً تيودور، وعيناه السوداوان تبحثان عنها. شعر بسخونة ما إن رآها واقفة هناك بانتظاره، وشعرها الأشقر مصقول، لامع، ومنسدل على الثوب الكتاني الذي ترتديه.

تذكرها بين ذراعيه، وشعر بنعومة بشرتها، وشذا عطرها يسحره.

وقفت صوفي جامدة لا تستطيع الحراك ولا التنفس. رؤيتها له مرة أخرى أضاعت منها الحواس. في الفترة الأخيرة، لم تكن تفكر إلا فيه تقريباً. ومع ذلك، جسمه الضامر الصلب، ووجهه الوسيم المزهو كانا أحسن مما تتذكرهما بمليون مرة.

ثم رآها تيودور، فصرخ: «ثوفي».

فعضت شفتها المرتجفة بشدّة وهي تمدّ ذراعيها فيركض الطفل إليهما مباشرة.

وقال لويس: «لقد افتقدك».

ومن فوق رأس تيودور قابلت عيني لويس اللامعتين المتفهمتين. وأضاف برقّة: «نحن الإثنان افتقدناك».

حدثت نفسها بغضب أن هذا لا يعني شيئاً... لا يعني شيئاً... وقالت: «لقد استأجرت سيارة وهي تنتظر في الخارج. آه! واشتريت ألعاباً لك يا تيودور».

ـ أنت تفسدينه بالدلال.

ـ لمَ لا؟ إنه سرور لي.

ـ أعرف ذلك.

وغادر الثلاثة المطار وصوفي تحمل الطفل.

ربط لويس الطفل في مقعد الأطفال، وسألها: «أليس لديك سيارة؟».

فهزت رأسها: «لا حاجة لي بها، في الحقيقة. خصوصاً في لندن. يمكنني أن أسير، أستقل المترو أو أستأجر سيارة إذا كان الجو ممطراً».

فابتسم: «وهل تمطر دوماً؟».

فقالت برزانة: «ليس مثل لاريوجا طبعاً».

كانت الجدة تنتظر عند الباب عندما توقفت السيارة. بدت حديقة الكوخ قديمة الطراز بالضبط كما كانت تبدو لصوفي عندما كانت طفلة. ونباتات الخطمية والورود والياسمين لا زالت تتسلق جدران المنزل.

- مرحباً يا لويس.

ابتسمت له السيدة ميلز، ثم نظرت طويلاً وبحدة إلى الطفل ذي الشعر الأسود وقد أشرق وجهها المغضن: «لا بد أنك تيودور».

في الحديقة كان الجوّ دافئاً بما يكفي ليتناولوا الغداء. جلس تيودور على بطانية فرشت له، حيث أخذ يلعب بألعابه محدثاً جلبة من كل الأنواع.

وبعد ذلك بدأ بالتثاؤب، فانتقلوا جميعاً إلى الداخل حيث شربوا القهوة، بينما اندس هو في الأريكة مسروراً ليستغرق أخيراً في النوم.

والآن ماذا بعد؟ فكرت صوفي بذلك. ولكن لدهشتها وجدت أن لويس وجدّتها قد انخرطا في الثرثرة معاً بسرور بالغ. إنها لا تكرهه على الإطلاق، كما أخذت صوفي تفكر وهي تخلي المائدة من الأطباق وتأخذها إلى المطبخ.

وضعت كل شيء في غسالة الأطباق. ثم رفعت الجدة بصرها إليها: «لمَ لا تغتنمين الفرصة وتأخذين لويس في جولة حول القرية ما دام تيودور نائماً؟».

نظرت صوفي إلى لويس: «هل ترغب بذلك؟».

- طبعاً، ولمَ لا؟ أنت تعلمين أن تيودور سينام لساعة أو ربما لساعتين.

سارا في الطريق، متجاوزين الكنيسة. قالت وهي تتنفس بشكل غريب: «هنا يمكنك أن تسمع أجمل رنين جرس. وهنا في مكتب البريد، كانوا دوماً يسمحون لنا بالآيس كريم إذا...».

قال لويس فجأة: «صوفي. سلفادورا ستنتقل من البيت».

فوقفت: «تنتقل؟ إلى أين؟».

- ستعود إلى «سلامنكا» حيث تعيش أسرتها، وزوجها بيرو أيضاً. إنها تكبر في السن، وهي أكبر من أن تستطيع العناية بتيودور الآن. أدركت ذلك بعد رحيلك. هي مسرورة برحيلها... فالطفل عبء كبير عليها. أدركت ذلك أنا أيضاً. ورأيت بنفسي الفرق في الطريقة التي كنت أنت تعاملين بها الطفل، فأنت صغيرة يمكنك أن تلعبي معه وهو يحتاج إلى من يلعب معه.

قطبت جبينها مشتتة الأفكار: كيف يمكنه أن يواجه الأمور في البيت بدون سلفادورا؟

- ماذا ستفعل أنت؟ ومن الذي سيرعاه من الآن فصاعداً؟

- سيكون علي أن أعلن في الصحف عن حاجتي لمربية.

وأخذ يراقب ردة فعلها بعناية: «مربية صغيرة السن... مثلك».

تقابلت أعينهما بينما قفز قلبها في صدرها. جرؤت أن تلقي سؤالاً من دون أن تهتم بحماقته: «ولكن ليس أنا؟».

سكت لحظة ثم قال متعمداً: «ولكن، لديك حياتك الخاصة هنا».

أحقاً؟ ما هو نوع حياتها الآن؟

الحياة التي ترغب فيها حقاً هي مع الرجل الذي تتلهف إليه. لكنه لا يطلب منها أن تكون معه، فقالت بألم: «أنت تعني أنك لا تريدني».

كانت اللوعة في قلبها ترسل الكلمات من فمها بدون وعي منها. فقال وقد فقد فمه شيئاً من توتره: «آه، صوفي».

قال هذا وهو يأخذها بين ذراعيه من دون إنذار. كانت عيناه السوداوان تتوهجان بلهب أبنوسي وهو يحدق في وجهها: «هذه هي المشكلة يا عزيزتي. أنا أريدك، أعني... أفضل أن تعتني أنت بتيودور، لكنني أخشى

أن أكون قد أسأت إليك كثيراً، وهذا يمنعك..».

- لويس...

لكنها لم تتحرك، لم تستطع. فبين ذراعيه، هو المكان الذي تفضله على أي مكان آخر.

- أريدك أن تأتي معي، صوفي.

كان صوته الغني يصل إلى أعماقها، فتلونت وجنتاها بلون الخوخ بينما كان يهمس: «نعم، أنا أريدك أن تعودي معي إلى «لاريوجا» وتهتمي بتيودور كما فعلت سابقاً. فلا أحد، سواي طبعاً، يمكنه أن يحب تيودور ويعتني به كما تحبينه أنت وتعتنين به. أظنك شغوفة به أليس كذلك؟».

وهي تريد أن تكون هناك أكثر من أي شيء آخر في العالم، ولكن... لم تعرف أكان عليها أن تفرح أم تحزن. إنه لا يثق بسواها فيما يتعلق بتيودور، أما هو.. فلم يبد نحوها أي اهتمام شخصي. لكنها تمالكت نفسها لتقول: «آه، نعم أنا شغوفة به حقاً. لقد افتقدته كثيراً».

وتنهدت: «لا أدري».

كيف يمكنها أن تترك كل شيء وراءها؟ حياتها، عملها... لكن قلبها الهش الضعيف راح يضغط عليها. ورفعت وجهها إليه تركز نظراتها في عينيه: «الأمر ليس بهذه البساطة يا لويس».

- إنه بسيط بقدر ما تجعلينه بسيطاً. أنا... أنا ساكون سعيداً بصحبتك أيضاً.

حاولت أن تقنع نفسها بأن هذا غير منطقي أبداً، أن تترك كل شيء لأجل تيودور. أما لويس، فلا يقدم إليها أكثر من صحبته. بينما هي تريد منه أكثر من ذلك بكثير، لكن مبرراتها لم تنته إلى شيء عندما اشتد ضغط ذراعيه حولها ليعانقها مجدداً.

أبعدته عنها وتخللت شعرها الأشقر بأصابعها بذهن شارد: «أنت

تطلب مني الكثير يا لويس»

- أنا أعلم هذا.

أن تتخلى عن كل ما لديها هنا، في حياتها الآمنة المريحة المضمونة في إنكلترا، من دون مقابل سوى صحبته وابنه، لتعيش معهما في تلك المزرعة الرائعة الجمال المستكينة في أودية «لاريوجا»، من دون وعد بالحب... لكنها ذكّرت نفسها بأن لويس لا يمكنه أن يكون منافقاً، ويعدها بما لا قدرة له عليه.

ولكن هل تسمح لنفسها بأن تنسى كيف نبذها بكل بساطة؟ أليست الحمقاء اليائسة فقط هي التي تتشبث بفرصة كهذه؟

لكنها من ناحية أخرى، فكرت في البديل... بحقيقة الحياة من دون حيوية وحساسية ذلك الإسباني، وأدركت حينئذ بأن على المرء أن يجازف أحياناً في هذه الحياة مجازفة عاطفية هذه المرة.

هذا مؤكد، فهي قد جازفت حين أسست الشركة مع لبام مع أنها قليلة الخبرة. لكن ذلك كان أمراً مختلفاً، يتعلق بالمال. ولهذا فإن ما يمكن أن تخسره أقل بكثير.

وعادت تفكر في ذلك مرة أخرى.

إنها في السابعة والعشرين من العمر. من يدري؟ ربما تتغير علاقتها بلويس بعد أن تعيش في منزله. ربما... سيشعر نحوها بالحب. أما إذا حرمت نفسها من هذه الفرصة، فقد تندم على ذلك بقية حياتها. وإذا فشل الأمر بينهما، يمكنها أن تعود إلى لندن لتبني حياتها من جديد. يمكنها أن تؤسس وكالة أخرى للإعلان. لقد قامت بهذا العمل مرة، ويمكنها القيام به مرة أخرى. ولكن هذه ربما فرصتها الوحيدة مع لويس.

ماذا لو انتهت بالمرارة والأسى؟

ماذا لو انتهى بها الأمر وهي تلقي على نفسها أسئلة أجوبتها تحطم

أتراه تكهّن بلحظة ضعفها هذه، فقال يسألها مغتنماً الفرصة بلهجته الناعمة، أشبه بمصارع الثيران الذي يدخل الحلبة ليهزم الثور؟

- هل تأتين، صوفي؟ هل تأتين وتعيشين معنا في «لاريوجا»؟

سكتت تفكر في البديل إلا أنها لم تجده: «سأفعل».

قالت هذا بصوت منخفض، وهي تفكر متشوّقة وبألم بالغ، كم يشبه ردّها هذا الموافقة على الزواج؟ لكن لويس لا يعرض عليها الزواج. كان صادقاً أكثر مما ينبغي. إنه يأتمنها على ابنه لتحبه وتعتني به، أما هو فلا يقدم حبه بل رفقته فقط. ولكن ليس الحب، ليس الزواج. مجرد رفيقة وراعية لابنه.

لم يكن هذا كافياً، ومع ذلك، ولأمر جنوني يتعذر تفسيره، بدا لها كذلك. إنه أكثر مما لديها هنا بكل تأكيد، من دون رجلها الإسباني المتكبر المتغطرس الذي احتل أفكارها كما لم يفعل رجل قط من قبل

ولن يحدث هذا مرة أخرى، كما أدركت بألم. فلو أنها عاشت حتى المئة، لن تأتيها فرصة أخرى مثل هذه مرة أخرى يجب أن تتشبث بها وتستمتع بها. ستمنح هذه التجربة عاماً من حياتها، هذا إذا تمكنت من البقاء هناك طوال هذه المدة، وبعد ذلك ستعود إلى التفكير في مستقبلها.

وعادت تقول: «سأفعل».

لكنه أراد أن يتأكد: «هل ستتركين كل شيء خلفك؟».

- نعم.

- لماذا؟

- لأجل... تيو... تيودور...

قالت هذا متلعثمة فرأت فجأة وجهه يجمد، وعينيه تضيقان، وهو يومىء بشكل آليّ تقريباً: «نعم... لأجل تيودور».

شيء ما جعل صوته جافاً. لكن لا يمكنها أن تقول له إنها تفعل ذلك لأجله أيضاً، لأنها تحبه. فلويس لن يتردد في الابتعاد عنها مسافة ميل على الأقل إذا اشتبه في أنها تحبه.

حدّق إليها ورأى اللمحة السريعة من الضعف في عينيها الزرقاوين. لم يكن قادراً على أن يمنحها الضمانات التي هي بحاجة إليها... ونستحقها. قد يكون رجلاً بلا قلب... ولكن من المؤكد أنه لن يعبّر عن مشاعر لا يحس بها!

حدّث نفسه بأنه عانى كثيراً حين ابتعدت عنه. نعم، إنه يرغب فيها... أكثر مما رغب في أي امرأة أخرى... ولكن هل من العدل أن يدّعي ما لا يشعر به من مشاعر الحب نحوها؟

تأوه وهو يرفع يدها ويقربها من شفتيه ثم يأخذ في تقبيل أناملها واحدة بعد أخرى بينما عيناه تأسران عينيها بلمعانهما الأبنوسي.

- وهل يمكنك أن تتركي شركتك من دون نظرة إلى الخلف؟

- عليّ أن أفكر في ذلك.

ربما بإمكانها أن تعمل جزءاً من الوقت من إسبانيا بصفتها عضو في السلطة التنفيذية للشركة. أم أن من الأفضل بالنسبة إلى ليام والشركة أن تقطع صلتها بهم تماماً؟ وهل يعفيها هذا من القلق...؟ وهل تسمح لها الفائدة التي تجنيها من رأسمالها بأن تستمر في استقلاليتها؟ لأنها، كما أدركت والغضب يتملكها، لا تريد أن تكون جليسة أطفال تلازم البيت فقط، مهما كانت الظروف. ابتسمت في عينيه العابستين وهزت كتفيها: «سبق وقلت لك... ليس هناك شخص لا يمكن الاستغناء عنه».

لكنها كادت تصبح شخصاً لا يُستغنى عنه بالنسبة إلى تيودور، كما أدرك لويس، ولم تكن المرة الأولى التي يدرك فيها ذلك. فصوفي قد أحبت الطفل واهتمت به بطريقة لم تستطعها أمه ميراندا، أراح الله روحها.

- حسناً، ما رأيك بالعودة إلى المنزل؟ جدتي تنتظرنا وكذلك تيودور. لدينا مسؤوليات يا لويس.

من السخرية أن كلامها لم يعجبه، وكأنه يريد أن يستأثر بها لنفسه. لكنها على صواب، فلديهما مسؤوليات.

- نعم.

شعر بألم جسماني بقدر ما اشتبه بأن لديها هي أيضاً مثله... ومع ذلك، أعجب بهدوئها وتراجعها خطوة الآن لتبتعد عنه.

فقال كارهاً: «فلنذهب إذن. قبل أن يستيقظ تيودور، ويسبب الإزعاج لجدتك».

فقالت مازحة: «إذا كان هناك من يسبب الإزعاج، فهو أنت وليس تيودور».

- ماذا، صوفي. هل تقولين إنني أزعجك حقاً؟

واقترب منها وعيناه تسخران منها. لكنها هزت رأسها غير واثقة من نفسها. لا يمكنها أن تتصور رجلاً آخر يتشدّق بمثل هذا التفاخر والسيطرة. فارتجفت وتساءلت إن كانت بقبولها الذهاب مع لويس دي لاكامارا قد ألزمت نفسها بأكثر مما تتوقعه. إلا أنها أكملت مازحة: «لا. أنا بإمكاني أن أكون أكثر إزعاجاً منك لويس دي لاكامارا».

***

٩ - وتفتّح القلب.. حناناً

قال لويس بصوت خافت: «ها أنت ذي هنا أخيراً. وبعد هذا الوقت الطويل».

جفّ فم صوفي وهي تبادله النظرات. كان يرتدي قميصاً بياض الثلج وبنطلوناً بسواد الفحم، ما جعله يبدو كمصارع ثيران. فأجابت وهي ترتجف: «نعم... ها أنذا».

استقبلها في المطار مرة أخرى، وعادا للتوّ بالسيارة. كانا كلاهما يشعر بالتوتر خلال رحلة العودة إلى درجة لا تطاق. بدت صوفي متلهفة إلى رؤيته، لكنه لم يعانقها مرحباً بها. والآن بعد أن وضعا تيودور في سريره، ما زال لويس يبدو شارداً، ولم تعرف هي سبب شروده كما أنها لم تجرؤ على السؤال.

من المؤكد أنه غير نادم الآن على قراره بإحضارها إلى هنا. لقد أمضت شهراً وهي تنظم أمور حياتها في إنكلترا، لتجهز ترتيباً يبدو غريباً وغير مألوف. فلماذا يقف بعيداً عنها إلى هذا الحد؟

سكب لها كوب عصير وناولها إياه: «هل كان من السهل عليك مغادرة الوطن؟».

أخذت الكوب شاكرة، إلا أنها شعرت ببعض الاشمئزاز، فقد بدا من لهجته وكأنه يجري لها مقابلة توظيف... وهذا كان صحيحاً إلى حد ما،

كما ذكرت نفسها بألم ألم يقدم لها وظيفة مربية لابنه؟

- لا أستطيع أن أسمي الأمر سهلاً

فرفع حاجبيه متسائلاً بغطرسة «آه؟»

لن تعترف له بأن كل من عرف بقرارها حاول أن يقنعها بالعدول عنه سألها والداها بقلق عما إذا كانت تدرك ما تفعل، وأخبرها ليام بصراحة بأنها مجنونة كما أن جدتها بدت قلقة للغاية.

- آه، يا صوفي هل أنت واثقة؟

فقالت صوفي بعناد «أنا شغوفة بتيودور»

فسألتها جدتها بدهاء: «تيودور فقط؟»

- ماذا تعنين؟

- ماذا سيكون دورك بالضبط؟ مجرد راعية لتيودور؟

- ليس مجرد راعية، كلا بالطبع. سيساعدني لويس في رعايته كلما كان في المنزل كما أن هناك فتاة في القرية يمكنها أن تبقى إذا أردت أنا الخروج. آه، كما أن هناك طاهية جديدة وبستاني، ومدبرة منزل.

أضافت ذلك بغموض تقريباً، فرأت جدتها ترفع حاجبيها بخفة «وهل هذا كل شيء؟».

تنهدت صوفي ولم تدر هل عليها أن تخبر جدتها بالحقيقة أم لا؟ ولكن كيف يمكن أن تخبر امرأة تقارب الثمانين أنها وافقت على أن تضحي مربية تيودور لتكون قريبة من أبيه الذي لا يبادلها الحب؟ وقالت متلعثمة «من الصعب توضيح ذلك. لا أدري ما الذي سيحدث...».

- أنت تحبينه، أليس كذلك؟

عضت صوفي شفتها. إنها لا تريد أن تكذب، لكنها تكره أكثر أن تسبب القلق لجدتها. ومع ذلك، من بإمكانه أن يقول شيئاً؟ هذا صحيح، فهي تحبه، ولكن ربما «الحب» كلمة تستعملها المرأة عندما تريد أن تصف

تلهفها إلى رجل يكاد يفقدها صوابها.

- لا أدري ما الذي أشعر به حقاً. أنا أعلم أنك تظنينه أساء معاملة ميراندا، وأنه سيء كلياً...

فقاطعتها جدتها بحزم: «أنا لم أقل هذا قط. ليس ثمة شخص سيء كلياً، كما أنه ليس هناك من هو جيد كلياً. ولكن قد يكون الشخصان غير مناسبين لبعضهما البعض. وأظن أن المسألة كانت كذلك مع ميراندا ولويس. فقط كوني حذرة يا عزيزتي، هذا كل ما سأقوله. رجل مثل لويس لديه جاذبية واضحة، ولكنه قد لا يكون جيداً بالنسبة إليك أيضاً».

تذكرت صوفي كلماتها هذه أثناء الرحلة مدركة أن جدتها ربما نطقت بالحقيقة التي لا تريد هي أن تسمعها، لكنها تدرك أيضاً أن وقت التراجع قد فات الآن. فقد كرست نفسها لتيودور، على أمل أن تفوز بحب أبيه. إلا أن الأب كان يقف الآن أشبه بغريب رائع مهيب في غرفة جلوس عالية السقف في بيت ريفي فخم للغاية.

حسناً، عليها اللعنة إذا كانت ستقوم هي بالخطوة الأولى لتتقرب منه. ألم تتخلّ عما يكفي لتحضر إلى هنا؟

رأى لويس التوتر الذي صلّب كتفيها، فقد بدت ضعيفة متوترة وكأنها ندمت على قرارها بالمجيء، ولكن من الطبيعي أن تتملكها الشكوك. قال باسماً: «اجلسي».

كان هذا أسوأ من أن يُطاق. هل هذا ما تركت حياتها في الوطن لأجله؟

وضعت كوبها بيد مرتجفة: «لا أريد أن أجلس. أظن عليّ أن أصعد إلى غرفتي لأتبرد وأرتاح... أنا... أنا متعبة».

لكن لويس لم يحتمل فكرة ذهابها. يا الله! لقد حاول أن يقوم بدور الرجل المهذب الكامل.

وضع كأسه ثم سار نحوها بخفة الفهد. ثم سألها بنعومة: «أتريدين أن تصعدي إلى الطابق الأعلى يا عزيزتي؟»

فتأملت حذاءها: «هذا ما قلته».

ـ ألا أستحق منك عناقاً قبل النوم، كما عانقت تيودور؟

وسرعان ما التفت ذراعاه حولها وعانقها، من دون أن ينتظر ردها. ذلك أن لا شيء في العالم سيجعله ينتظر أكثر من ذلك.

وهي أيضاً قد انتظرته طويلاً. هل كانت تلك نيته؟ أن يبقيها بعيدة عنه حتى تمتلىء شوقاً ورغبة إليه؟ حتى تذوب بين ذراعيه؟

لأن هذا ما حدث بالضبط. فقد بدت وكأنها كتلة من المشاعر المنشوقة الرائعة. توقفت فجأة فحدّقت إليه بتأنيب صامت، فرأت لمعان عينيه واللون الذي أبرز وجنتيه العاليتين الأرستقراطيتين.

بدت له جميلة جداً! ولعوباً تقريباً بوجهها المتوهج وشعرها العسلي المتناثر بغير نظام، رغم أن ثوبها كان محتشماً تماماً. إنه محتشم أكثر مما ينبغي.

شعرت صوفي أن عليها أن تقول شيئاً لتهدىء من توتر مشاعرها. فقالت: «شكراً لك لويس لأنك وثقت بي فيما يتعلق بتيودور. لن أخيب أملك مطلقاً».

ـ أنت تجامليني كثيراً يا عزيزتي.

ثم ضاقت عيناه وهو يرى احمرار وجهها السريع. بدت وكأنها... وكأنها... من المؤكد أنها ليست ثائرة الأعصاب: «هل أخفتك يا صغيرة؟».

أخافها؟ لا. إنه لم يخفها. لكنها، لسبب ما، شعرت برعب بالغ. أخذت تفكر في ذلك وهي تنظر إليه واقفاً إلى جانبها أسمر رائع الجمال. وفكرت في أنها لم تر رجلاً بروعته قط.

وأخذ لويس خصلة من شعرها إلى الخلف وهو يأخذها بين ذراعيه من جديد.

استجمعت شجاعتها لتبتعد عنه، قائلة: «كفى، لويس! عناق واحد يكفي. فهذا لم يكن ضمن اتفاقيتنا».

ـ وهل هذه الأمور تحتاج إلى اتفاقية؟

ـ ربما لا، لكنني لست مستعدة لأكثر من ذلك.

أغمض عينيه لحظة، متوسلاً إلى جسده أن يهدأ، ثم رفع ذقنها وأخذ ينظر إلى وجهها وعيناه السوداوان تلمعان برزانة. رغم أن شبح ابتسامة بدا على شفتيه، وهو يقول: «أنت تختبرين صبري، يا صوفي؟».

فهمست: «لا أريد أن أختبر شيئاً».

فقال يطمئنها: «لا تخافي، عزيزتي. أعدك بأنني لن أضايقك». ولن أطلب منك ما لا تريدين القيام به».

ويبدو أن مخاوفها قد زالت، كما أدرك، لكن تلك المخاوف قد تعود مرة أخرى إذا هو عبث معها.

آه، إنه رجل كامل! فكرت صوفي بذلك بيأس. من هو الرجل الذي يمكنه أن ينافس لويس دي لاكامارا؟

عليها أن تنسحب إلى غرفتها بسرعة قبل أن يزداد توترها: «حسناً، تصبح على خير إذاً، لويس».

أجابها بذهن شارد: «نعم... تصبحين على خير أنت أيضاً».

* * *

سارت صوفي في الحديقة المشمسة نحو بركة السباحة حيث كانت تسمع صدى ضحكات. سارت تحت ظلال الأشجار، ورأت لويس يدهن ظهر ابنه تيودور بالزيت المضاد لحروق الشمس. انحبست أنفاسها في حلقها، كالعادة! وتنهدت.

كانت تظن أن من المستحيل أن تصبح مشاعرها نحوه أقوى. لكن

يبدو أنها مخطئة تماماً.

ثلاثة أشهر من العيش بقرب لويس كمربية لابنه لم تخفف من تأثيره عليها.

وتملكتها الكآبة، يا ليته فقط... يا ليته يبادلها الحب! لكنه لا يحبها ولن يحبها وعليها أن تعتاد على هذا. كما أنها لا تستطيع حقاً أن تشكو لأنه يعاملها بكل التهذيب والكياسة الفطريتين اللذين تعوّدهما من خلال نشأته الأرستقراطية.

كان يضحك لمزاحها وتضحك هي لمزاحه. ويقرآن الصحف أثناء الفطور ويناقشان مشاكل العالم. كان يعلمها أحياناً كلمات وجمل بالإسبانية، وبهذا يمكنها أن تتعلم الحديث بلغته.

ما الذي ينقصها إذن؟ كلمات العشق والغرام والحب الذي لا يموت؟ إذا كانت تتوقع مثل تلك الكلمات فقد كتبت عليها خيبة الأمل. إنه لن يسمعها شيئاً منها، لأنه لم يتعهد بشيء. فهو يريدها من أجل ابنه فقط.

رفع لويس رأسه فرآها. ضاقت عيناه إزاء مظهرها الملفت للنظر، قبل أن تضيء ابتسامة بطيئة ملامحه الصلبة المزهوة: «صباح الخير، صوفي».

بدا وسيماً إلى درجة مدمّرة، وفكرت وهي تقترب منه بأنه من غير المعقول أن ينعم رجل واحد بكل هذه المزايا الجميلة وحده.

كانت قطرات صغيرة من الماء أشبه بحبيبات الماس تتألق على عضلاته المصقولة وقد أصبحت بشرته أكثر سمرة الآن بعد أن لوحتها الشمس.

تحكمت في تقاسيم وجهها كي لا يشي بما تشعر من الحنين إليه، ثم ابتسمت.

وصرخ تيودور مسروراً لرؤيتها: «ثو.. في!».

فركضت إليه صوفي بذراعين مفتوحتين، وسرورها هذه المرة لا يقل عن سرورها في المرة الأولى التي سمعت فيها لفظه المميّز لاسمها! وقالت بابتسامة عريضة: «صباح الخير يا تيودور. كيف حالك؟».

وكالعادة، جعلته محاولتها الكلام بالإسبانية يغرق في الضحك، فأخذت تشعّث شعره بحنان، ثم قالت وهي تهز إصبعها في وجهه: «انتظر، قريباً جداً سأتكلم الإسبانية أفضل منك».

حبس لويس أنفاسه عندما جلست القرفصاء بجانبه، وقد انسدل شعرها أمام وجهها فأخفى ما عليه من تعبير. بينما كان هو يلعن بصمت، بسبب المشاعر التي أثارتها فيه بالرغم من حسن اختيارها «مايو» السباحة الذي ترتديه. فهو لم يعرف امرأة قط بهذه الحشمة!

كان يعلم أن أكثر النساء يستعملن السباحة فرصة يعرضن فيها من أجسادهن قدر الإمكان... ولكن ليس صوفي.

ومع ذلك، زرقة «المايوه» الذي ترتديه أبرزت زرقة عينيها، كما أبرزت طول ساقيها. ورغم أن معظم صدرها كان مغطى، إلا أن القماش الرقيق لم يستطع إخفاء مستديراته.

ـ هل نذهب للسباحة.

قالت صوفي هذا بإسبانية متعثرة وهي تشير بذراعيها وكأنها شبح. فأغرق تيودور في الضحك وهو يرفع ذراعيه إليها لتحمله قائلاً بالإسبانية: «نعم، نعم».

حملته صوفي وهي تتشمم رائحة بودرة الأطفال الرائعة فيه، بينما هو يلف ذراعيه حول عنقها، ومع ذلك كانت واعية إلى العينين السوداوين اللتين تتابعان كل حركة من حركاتها.

ـ هل ستأتي؟

فقطب لويس حاجبيه بشرود: «ماذا؟».

ـ للسباحة؟

هز رأسه: «سأبقى هنا قليلاً».

لكن جلوسه على حافة البركة ورؤيته لهما يسبحان، لم يساعده على تهدئة مشاعره وأخيراً خنق آهة وانقلب على معدته.

دوماً كان يتمنى امرأة لا تفرض عليه متطلبات عاطفية مستحيلة. لكنه الآن بعد أن وجدها اكتشف أنه يزداد إحباطاً.

ولكن ما هي بالضبط صوفي هذه؟ إنها لا تبحث أبداً عن المديح، ولم تحاول مرة أن تثير غيرته بالعبث مع أصدقائه في المناسبات عندما يذهبان جميعاً إلى العشاء. ولا هي طلبت مرة أن تعرف شعوره نحوها.

إنها شغوف بتيودور ولا تتعب أبداً من متطلباته. تبدو دائماً هادئة عاطفية للغاية، محللة للأمور وماهرة... إنها كل ما يتمناه الرجل. فما هي مشكلته إذن؟ هل ستقف ميراندا بينهما إلى الأبد؟

ـ تبدو بعيداً أميالاً.

اخترق تأملاته صوت ناعم فنظر ليرى صوفي واقفة والماء يقطر منها. مدت يدها لتتناول منشفة تجفف بها جسم الطفل الذي بين ذراعيها. فأظهرت حركتها هذه وهي تجففه تفاصيل جسمها بشكل تسارعت معه خفقات قلب لويس.

ـ ماذا حدث يا لويس؟

ـ ولماذا يحدث لي أيّ شيء؟

ـ تبدو عابساً.

فأغمض عينيه: «أنا متعب فقط».

لا عجب في ذلك، كما أخذت تفكر بعطف وهي تنظر إلى ارتفاع ظهره البطيء وانخفاضه أثناء تنفسه. فهو يعمل كثيراً هذه الأيام.

وارتسمت ابتسامة على جانبي فمها وهي تجفف شعر الطفل. وفكرت

كم أن لويس رجل رائع، فهو يكرس الكثير من وقته لابنه بعد عودته من عمله وهذا ما يجعله يشعر بالتعب، أما هي فلا تشعر بالتعب على الإطلاق... بل تشعر وكأنه بإمكانها أن تخرج للاشتراك في مسابقة ركض!

أثناء العشاء تلك الليلة راح لويس يحدق إليها من خلال أضواء الشموع المتراقصة: «أتودين مرافقتي إلى حفلة؟».

فطرفت بعينيها: «متى؟».

ـ غداً مساءً.

ـ هذا الموعد قريب قليلاً، أليس كذلك؟

فقال ببطء: «لم أكن... أم أكن متحمساً للذهاب، لكنني أظنك قد تستمتعين بها».

لقد بدا الليلة في مزاج غريب. فهو شارد متوتر، وقد بدت عيناه أكثر غموضاً من العادة.

ولكن قد تكون الحفلة ممتعة فابتسمت: «لا بأس، يبدو أنها جيدة. هل أطلب الحلوى الآن؟».

شعر بالغيظ وخيبة الأمل لأنها لم تطرح عليه الأسئلة بشأن تلك الحفلة. لماذا لا تسأله عن مكانها ومن هم أصحابها ومن سيكون حاضراً هناك؟ إنها، تقريباً، لا تهتم لكل ذلك. وقطب حاجبيه.

وفي الواقع، كانت صوفي تشعر بالتوتر في داخلها. ولكنها لا تريده أن يشعر بتوترها مطلقاً. كانت تجد زوجات وصديقات أصدقائه رائعات للغاية في ملابسهن وزينتهن. وكأنهن أمضين النهار في التنقل بين محلات دور التجميل وتزيين الشعر، قبل أن يعدن إلى البيت للاستعداد للحفلة.

وهذا لا يعني أنها مهملة كسول في ملابسها، لكنها تشعر فقط بأنها لا تُقارن بالأخريات في الأناقة. فقد كانت أظافرها قصيرة غير ملمعة، ذلك

www.elromancia.com

أنها غالباً تمضي قسماً كبيراً من النهار تحت ظلال أشجار الليمون تحفر في الرمل مع تيودور. والرمال يمكنها أن تتلف المخالب وليس فقط الأظافر!

في المساء التالي فتحت خزانتها وأخذت تفحص ملابسها. لم تكن الملابس الأنيقة تنقصها في حياتها الجديدة. فبيعها لحصتها في الشركة جعلها امرأة ثرية... حسناً، غنية نسبياً بالمقارنة مع لويس، كما فكرت بجفاء.

كان لويس قد أخذها لتتسوّق في مدينة «بامبلونا» لتشتري ملابس مناسبة لصيف «لاريوجا» الحار. ومرة أخرى رفضت أن يدفع هو ثمنها، قائلة بعناد: «يمكنني أن أدفع بنفسي. هل نسيت أنني بعت حصتي في الشركة؟».

فهتف حينذاك: «بحق الله! يا لك من امرأة عنيدة. لقد اختلف الوضع بيننا الآن».

- وكيف؟

- أنت ترعين ابني. فما السوء في أن أشتري لك بعض الملابس؟

فقالت بهدوء: «أنا آخذ راتباً مقابل ذلك، ومع أنني لست بحاجة إلى هذا الراتب إلا أنني رضيت به لكي تكون الأمور واضحة بيننا، مع أنني أقوم بذلك لأنني أحب تيودور وليس لأجل المال».

فتح لويس فمه ثم عاد فأقفله غير قادر على مجادلة منطقها. ورأت صوفي مزيجاً من الإحباط والإعجاب يلمع في عينيه. هذا حسن! لأنه مضى وقت طويل منذ قررت أن لويس دي لاكامارا قد أمضى وقتاً طويلاً مع نساء من طراز واحد. فليدرك الآن أن هناك أنواعاً مختلفة من النساء، وأن هناك نساء لا يخرجن مع الرجال بهدف الكسب.

أخذت من الخزانة ثوباً لم تكن قد لبسته بعد، ذا قماش رقيق هفهاف وردي اللون له حمّالات دقيقة وتنورة تظهر ساقيها الطويلتين.

كما في حفلة الزفاف، وضعت على وجهها مزيداً من الزينة. ليس للتأثير على الآخرين فقط، ولكن لأن أصباغ الوجه أحياناً تكون قناعاً تختفي المرأة خلفه. وكانت واعية جداً للأعين التي ستراقبها، تلك الأعين المتلهفة إلى معرفة ما الذي يحدث بينها وبين الدون لويس.

كان لويس ينتظرها في الطابق الأسفل وعندما دخلت الغرفة تساءل عما جعلها توافق على الذهاب إلى هذه الحفلة اللعينة. كان بإمكانهما البقاء هنا، يأكلان أطيب الطعام ويشربان أفخر أنواع العصير. ويمضيان الوقت بالتحدث كما يفعلان في معظم الأمسيات.

كان في خده نبض دائم الخفقان: «تبدين رائعة الجمال عزيزتي».

لكن لمعان عينيه السوداوين بدا أكثر تألقاً وهو يقترب منها. شعرت صوفي بالارتباك وألقت نظرة على ساعتها...

- لويس...

- تعالي...

قال ذلك وشبه ابتسامة تلوح على فمه. شعر أنه سينفجر إن لم يعانقها.

- لويس...

عادت تحتج مرة أخرى عندما التفت ذراعاه القويتان حولها مرسلتين في جسدها رجفة من الأحاسيس.

- تعالي واجلسي.

قال هذا وهو يقودها إلى الأريكة.

- لكنني ظننتنا ذاهبين إلى الحفلة...

- ونحن ذاهبان فعلاً.

راح يمرر يده على شعرها وعنقها وأحس بارتجافها عندما مد يده ليلامس وجنتها بحنان: «أتعلمين؟ أصبحت لحسد تيودور هذه الأيام».

- لماذا؟

- لأنه يحظى باهتمامك كثيراً، بينما لا أحظى أنا منك بشيء.

- كفى... أنت لا تحتاج إلى اهتمام فلديك..

ولم تستطع إكمال جملتها، لأن لويس وضع إصبعه على فمها ليسكتها: «لا، ليس لدي سوى تيودور و... أنت إذا أردت»

إنها تريد ذلك. ولكن إذا لم يتوقّف الآن عن هذا الكلام الناعم فهي لا تعلم بالضبط ما سيحدث.

وابتدأ قلبها يخفق بقوة.

- آه، لويس. ماذا تقول؟ إنك تربكني.

عاد يعانقها مرة أخرى وعيناه تشتعلان لشدة مشاعره. لم تعرف صوفي كم من الوقت استمر هذا العناق، ولم تشعر إلا وهو يبعدها عنه ليقول: «هيا عزيزتي، قبل أن نتأخر على الحفلة».

تساءلت عما عسى أن يكون شكلها... متوهجة ساخنة! فسألته غير واثقة: «أما زلت تريد الذهاب؟».

تصلب فمه وهو يرغم نفسه على الابتعاد عنها: «نعم».

فابتلعت ريقها: «امنحني خمس دقائق».

بعد قليل عادت وقد سوّت شعرها وفاحت منها رائحة الصابون والعطر، وأمسكت حقيبتها الصغيرة: «هيا بنا».

وعندما جلست في السيارة، بدت مشوّشة مضطربة. من المفروض أن يقرّب العناق بينهما... أليس هذا صحيحاً؟ لماذا بدا لها لويس فجأة وكأنه بعيد عنها بمليون ميل؟

حاولت أن تخفف من التوتر الذي ساد بينهما: «من هو صاحب الحفلة؟».

- آه، إذن فأنت مهتمة بذلك!

- طبعاً مهتمة بذلك!

- إنه صديق قديم جداً لي. وقد نشأنا معاً، كما أن أسرته تملك كروم عنب فاخرة في «لاريوجا».

فقالت تغيظه: «وهل منتوجاته تنافس منتوجات «دي لاكامارا»؟».

فقال ببطء: «ما رأيك؟».

حسناً، فلتجعل مزاجه سيئاً إذن! وهي لن تحاول إرضاءه. كان عليه أن يكون مبتهجاً بعدما حصل، لا نكداً متوتراً كما يبدو الآن.

وقالت باستياء: «أظن عليك أن تمحو هذا العبوس من وجهك».

وتمنى لويس لو أنه يمحو تلك النظرة الغاضبة عن وجهها بضمها إلى صدره، لكنهما كانا يسيران في طريق المنزل الخاص وسيارة أخرى خلفهما مباشرة.

* * *

في الخارج، كانت مصابيح مشرقة الألوان تنير المنزل، حيث تقام الحفلة، بألوان قوس قزح. خرجا من السيارة في الجوّ الدافىء، وسمعا أصوات الموسيقى والضحك قادمة من ناحية بركة السباحة.

- هل أنت جاهزة؟

ومدّ لها ذراعه كي تتأبطها لكن صوفي تجاهلتها، لم تشأ أن تبدو متأبطة ذراعه وكأنها نوع من الغنائم! بل قالت بدلاً من ذلك: «فلنذهب».

قدمها إلى مضيفه لورنت غوفر وزوجته الحامل الرائعة الجمال ماريا.

- ماذا تريدين أن تشربي يا صوفي؟.

سألتها ماريا بابتسامة ترحيب حقيقية.

- بعض العصير من فضلك.

قالت صوفي هذا وهي ترفع بصرها إلى لويس، لكنه لم يبتسم حين التقت أعينهما. ماذا حدث له هذا المساء؟ وسألت ماريا: «متى يحين

وقت ولادتك؟»

- قبل عيد الميلاد مباشرة.

وابتسمت فبانت غمازتاها.

- وهل هو أول أولادك؟

- بل الخامس.

فهتفت صوفي بضعف. «يا الله. تبدين وكأنك في سني!».

فقال لويس بجفاء: «إنها في سنك فعلاً. ولكن بعض النساء يبدأن منذ الصغر ثم لا يتوقفن عن الإنجاب. أليس كذلك يا ماريا؟».

فأجابت بحماسة: «هذا هو الأخير!».

- الأخير في ماذا؟

ألقى زوجها هذا السؤال وهو يحمل العصير إليهما. فأجابت زوجته وهي تغمز صوفي: «لا شيء».

ازداد شعور صوفي بالارتياح. يبدو أن صديقي لويس ظريفان وهما يتقبلانها بشكل حسن. إنهما صديقان حميمان على كل حال. وكالعادة كانت واعية إلى نظرات الحيرة من النساء غير المرتبطات، لكنها لم تهتم حقاً. بإمكانهن أن يسدّدن إليه نظرات الهيام كما يشأن، فلويس الليلة برفقتها هي!

كل ما أرادت معرفته هو لماذا يبدو لويس هادئاً رزيناً. ولكن لم تسنح لها فرصة لتسأله فهما لم ينفردا ببعضهما البعض قط.

قدم إليها صحن حلوى، وهمت بالذهاب للبحث عن لويس لتأكل معه عندما انتبهت فجأة إلى لحظة صمت تبعتها جلبة حماسة. فرفعت بصرها لترى سبب هذا كله.

إنها امرأة ذات جمال خارق، ظنت للحظة أنها رأتها على غلاف مجلة أزياء، بل ربما رأتها فعلاً.

بدت المرأة طويلة يوازي طولها طول أطول رجل في الحفلة والذي هو لويس بطبيعة الحال

بدا ثوبها الفضي ملتصقاً به وكأنه ذيل حورية البحر. أما شعرها الكث الأسود فكان مكوماً على رأسها بشكل حلقات مزينة بالجواهر، تتألق وكأنها جواهر حقيقية

جمال وجهها لم يكن عادياً على الإطلاق، فهو يمثل نموذج الجمال الإسباني وجه بيضاوي بعينين كبيرتين سوداوين وفم ناعم حلو مصبوغ باللون الأحمر وقد عكس هذا الوجه مشاعر محمومة بقدر ما هو جميل.

وهمست صوفي «من هي هذه المرأة؟»

بعد لحظة صمت، قالت ماريا بحذر. «هذه أليخاندرا. ألم تتعرفي إليها بعد؟»

لا إنها طبعاً لم تتعرف عليها ما الذي يجعل لويس يعرفها إليها؟ ألا يضعه هذا في موقف محرج؟

وتساءلت صوفي بألم عما ستسمعه حينذاك؟

ربما حان الوقت الذي عليها أن تكفّ فيه عن خداع نفسها بأن لويس سوف يحبها يوماً ما. نعم، إن لويس يعاملها باحترام، ولكن ذلك يعود فقط لأنها ضمنت لنفسها وضعاً آمناً برعايتها ابنه. قالت ببطء وهي تعيد الصحن الذي لم يمس إلى المائدة: «لا. لم نتعرف إلى بعضنا البعض. والآن، معذرة يا ماريا. عليّ أن أذهب لأبحث عن لويس».

لكنها لم تجد لويس في أيّ مكان. وأخيراً سارت إلى زاوية ظليلة قرب بركة السباحة غير قادرة على مواجهة أي شخص، أو القيام بأي حديث

جلست على مقعد طويل وتنهدت من أعماق قلبها. إنها، إما أن تبقى إلى أن تشيخ وتجفّ، وإما أن ترحل ما دام لديها القوة على ذلك.

كانت ستعيد تقييم وضعها بعد سنة ولكن انعدام شعورها بالأمان هذه الليلة أخذ يهدد بإغراقها. نعم، كانا سعيدين طوال هذه الأشهر الثلاثة. لكنه لم يفصح لها عن أية مشاعر نحوها، إنها بالنسبة إليه مجرد رفيقة مسلية فقط.

صوت وقع أقدام قطع عليها أفكارها، فرفعت نظرها لترى أليخاندرا واقفة هناك وقد بدت في ثوبها الفضي أشبه بشعاع أثيري برّاق.

- لا بد أنك صوفي. هل تعرفينني؟

قالت أليخاندرا هذا بلغة إنكليزية سليمة، فأجابتها صوفي: «طبعاً. أنت أليخاندرا».

لكن يدها راحت ترتجف وهي تضع الكأس بجانبها.

بقيت أليخاندرا لحظة تتأملها بصمت من دون حرج، ثم قالت بكآبة: «أنت جميلة جداً».

- وهكذا أنت.

فقالت أليخاندرا متأملة: «إنه يحب الشقراوات. إنه دوماً كذلك».

وفكرت صوفي ساخطة في أنها جعلتها ترى نفسها حلقة في سلسلة طويلة من الشقراوات!

وفتحت فمها لتوضح للمرأة الأخرى أنها مخطئة في ظنونها. وأن موقعها في حياة لويس يختلف كثيراً عن موقع أليخاندرا، لكن شيئاً ما منعها. فلتظن بها أليخاندرا ما تشاء! لن تهتم لأمرها.

في تلك اللحظة ظهر شخص أسمر من بين الظلال ثم وقف جامداً وكأنه قِدّ من الحجر.

كانت عيناه متأملتين، هذا كل ما استطاعت أن تقرأه فيهما في ضوء المساء الخافت.

- آه، إذن فقد تقابلتما أنتما الاثنتان؟

وفكرت صوفي وهي تمنحه نظرة باردة، في أنه السيد في تبخيس الأمور!

وتقدمت أليخاندرا خطوة إلى الأمام، مقدمة إليه خدها ليقبله، ولكن، ولدهشة صوفي، لم يفعل. وإنما أحنى رأسه بتحية رسمية، ثم قال بهدوء: «أليخاندرا، تبدين بصحة جيدة».

- وأنت أيضاً يا عزيزي. أعمال المنزل تناسبك حتماً.

تمتمت بذلك، لكن فمها التوى بابتسامة سريعة مؤلمة وكأنها تعترف بالحقيقة المرّة وهي أن شيئاً أساسياً في علاقتهما تغير؟

هل قالت هذا لإزعاجه؟ لتجعل الأمر وكأن آخر شقراء قد انشبت فيه مخالبها، تستعبده؟ لكنه وافقها على ذلك: «هذا صحيح».

ثم نظر إلى صوفي: «هل أكلت يا عزيزتي؟».

فكرت صوفي أنها لو تناولت الآن لقمة واحدة فسوف تختنق: «أنا لست جائعة».

- إذن، أتحبين أن ترقصي؟

- في الحقيقة يا لويس أكثر شيء أريده هو أن أذهب إلى البيت. أنا أكره أن أفسد الحفلة، لكنني متعبة جداً حقاً.

- أطلبي من سائق لورنت أن يأخذك إلى البيت.

اقترحت أليخاندرا هذا وهي تدفع كتفيها الرائعتين إلى الخلف.

- أنا أيضاً متعب.

قال لويس هذا برقّة لكن عينيه كانتا تنطقان برسالة سرية لصوفي: «هيا بنا يا صوفي. فلنحضر وشاحك ثم نذهب إلى البيت. تصبحين على خير يا أليخاندرا».

ومرة أخرى أحنى رأسه بأدب: «كان جيداً أن أراك مرة أخرى».

فأجابت بصوت جاف: «تصبح على خير».

لم تنطق صوفي بكلمة حتى أصبحا في الطريق متجهين إلى المزرعة،

ثم إذا بكل شيء ينساب من فمها كالسم: «كنت تعلم أنها ستكون هنا، أليس كذلك؟».

ـ طبعاً كنت أعلم.

ـ لكنك لم تجد من المناسب أن تخبرني؟

ـ أنت لم تسألي.

ـ وماذا إذا لم أسأل؟ كان عليك أن تخبرني.

فقال بجفاء: «لم أكن أعلم أن هذا يهمك».

لكن صوفي كانت من الثورة بحيث لم تنتبه إلى معنى كلامه «ما كنت لأذهب إلى الحفلة قط لو علمت أنها ستكون هناك».

ـ ولمَ لا؟

فقالت ثائرة: «آه، لا تكن ساذجاً يا لويس! لا بد أن كل شخص هناك كان يظن أنني أخذت مكان أليخاندرا في حياتك، ويضحك لرؤية صديقتك السابقة والحالية معاً في الحفلة نفسها؟ هل هذه كانت نيتك؟ لكي تذلني؟»

شتم بالإسبانية بصوت خافت بينما السيارة تتجه إلى المزرعة، وسألها: «أتظنين ذلك؟ أحقاً تظنين ذلك؟».

ـ ماذا علي أن أظن غير ذلك؟

فقال يعاتبها: «قدمت إليك ذراعي عند وصولنا، لكي أري العالم كله أنك أنت المرأة الوحيدة في حياتي، لكنك رفضتها، أليس كذلك؟ صوفي الهادئة الباردة ومبدؤها الواضح «لا تلمسني» والذي يمكنه أن يحجّر الماء في أشد الأيام حرارة!».

ـ أنا لن أبقى هنا لأسمع إهاناتك لي!

وقفزت من باب السيارة وصفقته خلفها، سائرة مباشرة إلى البيت، مندفعة إلى غرفة الجلوس ولويس في أعقابها يتملكه الغضب. وعندما

انغلق الباب خلفهما وأصبحا وحدهما، قال لويس: «ما بك صوفي، هل تغارين؟».

استدارت إليه بغضب بالغ: «كنت تحاول أن تثير غيرتي، أليس كذلك يا لويس؟»

ساد صمت طويل، قال بعده: «نعم، ربما هذا صحيح».

فحدّقت إليه: «ولماذا تريد أن تثير غيرتي؟».

فأطلق ضحكة قصيرة «والآن، من هو الساذج منا؟».

ـ أنا لا... أنا لا أفهم.

وفجأة، كل ما كان يغلي في أعماقه بهدوء منذ أسابيع أصبح الآن يغلي بعنف: «لا تفهمين؟ ألا تفهمين حقاً؟ أظن أن عليّ أن أكون شاكراً لأنك تبدين غيورة. على الأقل يريني هذا أنك تشعرين بشيء نحوي».

ـ لويس...

فانفجر غاضباً: «هل لديك فكرة عن شعور الرجل حين يحب امرأة ولا يستطيع الاقتراب منها؟».

ـ ماذا؟

ـ نعم. هذا ما يحصل لي حقاً، صوفي.

ـ لويس، هذه سخافة. لم تقل لي شيئاً كهذا من قبل.

ـ أنت تبعدينني عنك بعيني الساحرة الزرقاوين هاتين، وتلك الابتسامة الباردة الساخرة! ولكن الوقت الوحيد الذي أشعر فيه بأنني قريب من قلبك هو عندما أعانقك.

وشخر بازدراء: «وأنت تعجبين الآن لماذا أردت أن أثير غيرتك؟».

لم تره قط من قبل بمثل هذا الانطلاق في المشاعر... ليس إسبانياً إلى هذا الحد. وأدركت أنه رغم نشأته الأرستقراطية ولغته الإنكليزية الطليقة، هذا الرجل الذي يقف أمامها الآن هو لاتيني حي يتنفس بكل

مشاعره المحمومة وصخبه الموروث من عنصره اللاتيني هذا. لكن حيرتها كانت حقيقية عندما ابتدأ غضبها يتلاشى ويحل مكانه لهفة بالغة إلى أن تعلم ما الذي كان ينبغي عليها أن تسأله منذ وقت طويل. وهو: «وما الذي تريده مني لويس؟».

انطلق من عينيه شرر أسود: «لا شيء أنت غير مستعدة لأن تمنحيه».

وفجأة، فكرة أنها قد تفقده أصبحت حقيقية مخيفة للغاية: «أنا. كنت أظنني أقوم بعملي بشكل جيد».

ومرة أخرى أخذ يشتم بالإسبانية: «وأنت كذلك فعلاً! أحسن مربية في العالم. لكنني لا أريد مربية لابني فقط».

قال هذا بهياج بالغ وعيناه كأشعة ليزر سوداء.

فتحت فمها ذاهلة وأخذ قلبها يخفق بألم، وهي تقول بحزن: «أتعني... أتعني أنك تريدني أن أرحل؟».

- يا لله! هل عليّ أن أهجيء الكلمات لك؟ أريد أن أعلم ما يدور في ذلك القلب الإنكليزي المجنون البارد الذي لديك! لا، لا أريدك أن ترحلي... بل أريد أن أعلم ما تشعرين به!

- نحو ماذا؟

فتألقت عيناه وسألها غير مصدّق: «نحو ماذا؟... نحوي أنا طبعاً!».

فأشاحت عنه بوجهها. إنه يريد الكثير منها! إنه يريد كل شيء، وأكثر.

- صوفي؟

قال هذا بأقرب لهجة إلى التوسل الذي بإمكان لويس أن يوجهه إليها فقالت بعناد: «لا».

نظر إلى كتفيها المتصببتين بتمرد، وسألها بهدوء: «لماذا لا؟»

- لأن المشاعر لم تكن جزءاً من الصفقة. أنا جئت إلى هنا لكي أرعى ابنك. هكذا هي الاتفاقية وبكلماتك وليست كلماتي.

- وماذا لو أخبرتك بأنني لم أعد مسروراً بهذه الاتفاقية الحالية؟

فاستدارت إليه: «ما الذي تريد أن تقوله بالضبط؟».

- أن المشاعر تتغير، أو أنني كنت أعمى فلم أر أنها كانت موجودة طوال الوقت. وكما ترين...

وعض شفته وكأنه يحاول أن يقول كلمات هي غريبة عليه: «أنا أحبك يا صوفي. أحبك من كل قلبي».

فقالت بضعف رغم أن قلبها كاد ينفجر لشدة الخفقان: «لكنك لا تعرف ما هو الحب. هل نسيت؟».

- وكيف أنسى؟

قال هذا بمرارة، متسائلاً عما إذا كان مجنوناً لكي يقول كلاماً كهذا. لكنها كانت ما تزال واقفة بعيداً عنه، وعيناها ما زالتا حذرتين غير مقتنعتين. حاول جاهداً أن يعبّر عن مشاعره بالكلمات، تلك التي كانت غريبة عنه حقاً.

- ماذا تقولين إذا أنا أخبرتك بأنني وقعت في حبك منذ اللحظة التي رأيتك فيها يا صوفي. كان شعوراً من القوة بحيث هزّ أساس حياتي...

فقاطعته: «أرجوك! كان ذلك خطأ... وأنت تعلم ذلك! فقد كنت ستتزوج ابنة خالتي».

- لا يمكنك أن تمنعي شعوراً يسبّبه شخص آخر لك. إن ما تفعلينه بالنسبة إلى تلك المشاعر هو ما يجعلها خطأ أو صواب. وأنا لم أفعل شيئاً، لا شيء على الإطلاق، وكذلك أنت.

فهمست: «أنا أيضاً كنت أريدك، وقد تملكني شعور بالغ بالذنب لهذا السبب علّمت نفسي أن أكرهك. أن أقنع نفسي بأنك كنت تنظر

إلى أي امرأة أخرى بنفس الطريقة التي نظرت إليّ فيها ذلك النهار».

هز رأسه وقال بلطف: «أبداً. أنا لم أنظر قط إلى امرأة أخرى بمثل تلك الطريقة. لم تتمكن امرأة أخرى قط أن تجعلني أشعر بما شعرت به نحوك يا صوفي. لقد لاحقتني النساء وأقمن مشاريع وطلبنني بصراحة... ولكن ليس أنت. وكما ترين، تعودت على أن أحبك كثيراً، وما زلت لا أعرف شعورك نحوي».

شعرت صوفي فجأة وكأنها ستصاب بدوار فقالت بضعف: «لويس، هل لك أن تسندني؟ رجاء؟».

لم يحتج إلى كلمة أخرى، وإنما مدّ يديه يجذبها إليه يسندها بذراعيه القويتين، يحميها... أغمض عينيه وأراح خده على شعرها الحريري.

وقالت وهي تدس وجهها في صدره: «على كل حال، أنت تعلم».

رفع وجهها وقد تأثر وانزعج معاً لرؤية دموعها: «هل أعلم حقاً، ياعزيزتي؟».

- نعم، لا بد أنك تعلم. طبعاً أنا أحبك! لا بد أنك اعتدت أن تحبك النساء على الدوام.

تجاهل ذلك من باب اللباقة: «أنت لم تتصرفي وكأنك تحبينني. كنت تبعدينني عنك، يا صوفي. لا يمكنك أن تنكري هذا».

- لأن الحب يجعل الإنسان ضعيفاً. هذا هو السبب.

فقال بجفاء: «ألم أعلم أنا ذلك لتوّي؟».

حدقت إليه وكأنه أخبرها لتوّه أن الشمس ستبزغ في الليل: «أنت ضعيف؟ غير ممكن!».

- نعم، معك أحياناً. وكما ترين، الأمر يختلف معك. يختلف عن كل شيء عرفته وجربته قط.

لكن الماضي هبط بكل ظلمه وثقله، وتفجرت كل مخاوف صوفي

«لا أستطيع أن أبقى معك، يا لويس».

فجمد مكانه، وكرر قولها غير مصدق: «لا يمكنك أن تبقي معي؟».

هزت رأسها، عالمة أن عليها أن تواجه مخاوفها رافعة الرأس لا أن تتركها تتقيّح تحت الجلد حيث يمكنها أن تسمم ثقتها وحياتها. فهزت رأسها: «إلا إذا وثقت أنك لن تخونني في المستقبل، أو تتخذ لك صديقة مثل أليخاندرا».

أخذت تؤكد له هذا بعنف بالغ ثم نظرت إلى وجهه: «وكيف لي أن أعلم أنك لن تفعل ذلك؟».

فقال بلطف: «لأنني سأتعهد لك بذلك. هل سبق وكذبت عليك قط يا صوفي؟».

هزت رأسها، فقال ببساطة: «وكيف أنظر إلى امرأة أخرى بعد الآن؟ ألا تعلمين أنك تملكين قلبي؟».

كان هذا أجمل ما قيل لها. وسالت دمعة على خدها فأخذ يعنفها وهو يمسح الدمعة بإصبعه: «لا مزيد من الدموع ولا حاجة لك بها. تعالي يا صوفي واجلسي بجانبي هنا».

وأجلسها على الأريكة تحت النافذة برقة بالغة وكأنها طفلة، ثم رفع يدها إلى فمه وأخذ يقبل أناملها مفكراً.

فسألته: «متى حدث ذلك؟ متى عرفت؟».

فهز كتفيه: «من يعلم؟ عندما عدت إلى إنكلترا افتقدتك كالمجنون. وفي البداية حاولت أن أقنع نفسي أن ذلك مجرد إحباط، لكن الإحباط لا يسمم الحياة عادة. كنت أريدك، أريدك هنا معي على الدوام».

فقالت متذمرة: «تأخرت طويلاً قبل أن تأتي وتسألني».

فأومأ: «لكني كنت بحاجة إلى أن أتأكد، لأن ما أطلبه منك هو شيء كبير يا حبيبتي. ما كنت لأجازف بسعادة تيودور إذا ظننت أن الأمر لن

ينجح معنا وأنك قد تتركيه مرة أخرى وعلى كل حال... لم أكن أعلم ما سيكون عليه جوابك. وكيف أعلم أنك ستوافقين على التخلي عن حياتك في لندن ومركزك العالي فيها لكي تأتي وتهتمي بتيودور؟ لقد تحققت أعظم وأحلى أمنياتي».

شعرت بالثقة في أن تسأله من تحت أهدابها: «وماذا لو أنني لم أوافق؟».

- كنت سأذهب إليك لأحضرك. بشكل ما، كنت أعلم أنني سأحصل عليك في النهاية.

ارتجفت صوفي وقد أعجبها هذا الكلام: «والآن؟».

ابتسم وهو يرى التجاوب في عينيها: «والآن، أخبريني بالضبط متى ستوافقين على الزواج مني؟

* * *

الخاتمة

تركته ينتظر حوالى السنة حتى أوشك لويس أن يعترف بخطأ غطرسته. ظن أنه شعر بالإحباط حين عادت إلى إنكلترا في المرة الأولى، لكنه كان مخطئاً. وفكر ذاهلاً في أن هذا هو الإحباط!

هل كانت تتوقع منه أن يتوسل إليها؟ إذا كان الأمر كذلك سيخيب أملها. رغم أنها أسرت قلبه طوال حياته، أفراد أسرة دي لاكامارا لا يتوسلون أبداً.

لكنه كان يطلب منها من وقت لآخر أن تكون زوجته، عادة حين يجد أنه لا يستطيع مقاومة تأثيرها، وكان جوابها دوماً هو نفسه: «ليس الآن، يا لويس. ليس الآن».

فيتأوه: «لماذا تجعلينني أنتظر يا عزيزتي؟».

فكانت تلمس فمه بأصابعها: «لأن هذا ليس بالوقت المناسب».

- ومتى يكون إذن؟

- ستكون أول من يعلم.

همست بذلك وهي تعانقه مرة: «قد تكون هذه المرة الأولى في حياتك، التي يكون عليك فيها أن تنتظر!».

كان هذا صحيحاً، لأن مسرات الحياة كانت دوماً تأتي إلى لويس بكل سهولة، وقد اكتشف بنفسه أن تأجيلها الزفاف يثير رغبته فيها أكثر. وعندما أخبر صوفي بذلك ضحكت منه.

www.elromancia.com

بدأت صوفي الآن تتعلم الإسبانية، وقد تعاقد لويس لأجلها مع معلم يزورها أثناء قيلولة تيودور، وهكذا كانت تأخذ درساً بعد ظهر كل يوم

كانت تدرس بشكل جاد إلى حد أن لويس قال مرة إنه يخاف أن تتفوق عليه باللغة الإسبانية.

فقالت بهدوء: «ولم لا؟».

أصبح تيودور أكبر الآن وتحول من طفل سمين إلى صبي فاتن يسير على قدميه وأصبح الآن ينادي صوفي «ماما».

في المرة الأولى التي ناداها بذلك اغرورقت عيناها بالدموع. وعندما رفعت عينيها إلى لويس رأت لمعان عينيه واضحاً.

وفي تلك الليلة قال لها: «سيكون حسناً أن نمنح تيودور أخاً أو أختاً».

- أحقاً؟

- يمكننا أن نستمتع كثيراً معاً ونحن ننجب الأطفال، يا صوفي.

ثم، ذات يوم في مكتبه، وضعت سماعة الهاتف من يدها والتفتت إليه تقول: «سيأتي والداي إلى هنا ويقيما معنا فترة الإجازة».

رفع نظراته عن أوراقه: «هذا يسرني إذن. متى؟».

- أواخر الأسبوع القادم.

كان لويس قد اجتمع مع والديها مرتين، مرة عندما أعاد صوفي إلى إنكلترا مع تيودور، ومرة عندما برّد حذرهما وشكوكهما أمام حبه الواضح لابنتهما فأخذا يعتبرانه أعظم رجل.

وكانا قد زارا جدتها أيضاً وأصدقاءها في لندن. حتى لبام نفسه الذي ابتدأ يعترف بينه وبين نفسه، بأن الإسباني الأرستقراطي جعلها سعيدة.

وتمتمت: «عزيزي لويس».

كاد يلتهمها بنظراته: «هممم؟»

- أتعلم أن والديّ قادمين؟

- حسناً، لقد أخبرتني بذلك منذ لحظات. نعم أعلم، يا عزيزتي. ذاكرتي ليست سيئة إلى هذا الحد.

- حسناً

وجذبت نفساً طويلاً مدركة أنها أجّلت اللحظة المنتظرة بما يكفي حتى الآن. ذكرى ميراندا لن تتشوه بعد كل هذه المدة، ولن يشعر أي من الأقارب سوى بالسعادة لأجلهما. وقالت ببطء: «يبدو من المؤسف أن لا نحتفل بالمناسبة»

- أتريدينني أن أقيم حفلة لأجلهما؟

- بل نقيم الحفلة نحن الإثنان. نعم أريد ذلك.

ونظرت إليه من بين أهدابها: «يمكننا أن نجعلها حفلة زواج، إذا شئت».

فابتسم بكسل: «تعالي إلى هنا».

اقتربت منه ووضعت ذراعيها حول عنقه.

- أنت ستتزوجيني أخيراً. أليس كذلك، صوفي؟

- نعم، أرجوك!

- وأنت واثقة تماماً؟

حدقت في العينين السوداوين اللتين تلمعان بنوع من الحب والشوق. ومضت لحظة قبل أن تستطيع أن تهمس: «آه، نعم يا حبيبي دون لويس! لم يحدث في حياتي أن كنت متأكدة من شيء أكثر مما أنا متأكدة مما أقوله الآن».

***